الفصل الخمسون

ولضمان أمنها العظيم ، قسمت مملكة القدس بين مختلف الأمراء والبارونات ، الذين كان واجبهم الحفاظ على البلاد وحراستها تحت الملك ، واحتفظ الملك بيديه بأفضل أجزاء البلاد وأحسنها ، مثل مدن : القدس ، ونابلس(شكيم) وعكا ، وصور مع بلدات أخرى وقرى ، وارتبط نبلاء المملكة بيمين لخدمة الملك بعدد محدد من الفرسان ، وكان هؤلاء : كونت طرابلس ، وصاحب بيروت ، وصاحب صيدا ، وصاحب حيفا أو بورفيريا ، وصاحب قيسارية ، وأمير الجليل الذي كان أيضاً صاحب طبرية ، وكونت يافا وعسقلان، وصاحب الشوبك وجميع ما وراء الأردن ، وصاحب أسدود ، وصاحب ايبلين ، وبعض الآخرين ، لكن هؤلاء كانوا المقدمين بينهم والأول في المكانة والشرف .

الفصل الحادي والخمسين

وبدأت منذ ذلك الحين الكنيسة الشرقية بالازدهار من جديد ، وبدأت ممارسة الدين بالانتشار عبر الأراضي الشرقية ، وبدأت كروم الرب بإعطاء العناقيد ، ثم بدا أن الذي كتب في نشيد الانشاد قد أخذ يتحقق ، وهو قوله « : انتبهوا الشتاء قد مضى والمطر مرّ وزال. الزهور ظهرت في الأرض . بلغ أوان القضب » (نشيد الانشاد : ٢/ ١١ـ ١٢) وتدفق من مختلف أجزاء العالم ، ومن كل عرق ولغة ، ومن كل أمة تحت قبة السماء الحجاج على الأرض المقدسة وقد امتلأوا بالحماسة من أجل الرب مع رجال دين جذبتهم حلاوة خلاص الأماكن المقدسة والمبجلة ، وأعيد ترميم الكنائس القديمة وبنيت

كنائس جديدة ، بوساطة أعطيات الأمراء وهبات المؤمنين، وبنيت ديرة لرهبان منتظمين في أماكن مناسبة ، وتأسست في كل مكان بشكل لائق ومناسب أبرشيات القساوسة وجميع الأشياء المتعلقة بخدمة الرب وعبادته ، واختار رجال مقدسون اعتزلوا الدنيا أماكن للسكنى بها تتوافق مع مختف ميولهم ورغباتهم وحماستهم الدينية ، وتتماشى مع أهدافهم وتكريس أنفسهم .

الفصل الثاني والخمسون

واختار بعضهم ممن انجذب بمثل الرب واقتدى به ، البرية المرغوب بها والمسماة القرنطل ، حيث فيها صام الرب معتزلاً لمدة أربعين يوماً بعد تعميده ، (متى : ٤) وهناك عاشوا على شكل نساك ، وتعبدوا الرب عن طواعية متناهية في خلوات متواضعة ، واختار بعضهم تقليد حياة الاعتكاف للنبي إيليا بالعيش في عزلة على جبل الكرمل ، لاسيما في الجزء المطل على مدينة بورفيريا المسماة الآن حيفا ، قرب بئر يسمى بئر إيليا ، ليس بعيداًعن دير القديسة مرغريت العذراء ، حيث هناك خلوات صغيرة تشبه قرص عسل ، ففيها عاش نحل الرب وانتجوا عسلاً روحياً حلواً ، وهناك كرمل (إقرأ : قرمول غربي البحر الميت)آخر وراء الأردن ، قرب البيداء حيث أخفى داود نفسه عندما هرب من أمام شاؤول ، حيث كان مكان إقامة الفلاح نابال ، هذا وإن الكرمل الذي اعتاد إيليا على العيش فيه قائم على شاطىء البحر، على بعد أربعة أميال من عكا .

الفصل الثالث والخمسون

واختار عدد كبير أضرحة هادئة للموت فيها بعيداً عن هذه الدنيا،

حتى يمكنهم العيش للرب وكان ذلك في وادي الأردن ، حيث اعتزل يوحنا المعمدان أثناء طفولته ، فراراً من الدنيا ، حتى يمكنه مع مزيد من الحرية الاتصال بالرب ، وفي عزلته في هذه البيداء لم يأكل القديس يوحنا شيئاً سوى الجراد مع العسل ، والعادة في معظم أجزاء سورية أنه عندما تأتي أسراب الجراد الطائرة ، يقومون بجمعها والاحتفاظ بها للأكل .

وبالنسبة للعسل أنا رأيت الكثير منه في هذه الأجزاء في قصب السكر ، وقصب السكر هو قصب مليء بالعسل ، ويحصل الناس على عصير على درجة عالية من الحلاوة ، بوساطة سحق القصب بالضغط ، ثم يتم تكثيف العصير على النار ، وبذلك يصنع الناس أولاً نوعاً من العسل ، ثم سكراً ، ويدعى هذا القصب Can-nameles وهذه كلمة مكونة من كلمة قصب «canna و mel أي عسل لأن هذا القصب يشبه قصب البوص أو النباتات النامية

وبما أنني لم أعتقد صحة أكل المعمدان المبارك للمسيح جسد الجراد ، وهو الذي تخلى حتى عن أكل الخبز ، قمت باستفسار حثيث لواحد من الرهبان السريان ، الذي كان ديره في تلك الأجزاء ، وهو يحتوي على عدد كبير من الرهبان ، الذين يمارسون حياة قاسية جداً ، تحت رئاسة راع للدير ، وسألته : أي نوع من الجراد كان الذي — كما قيل — أكله القديس يوحنا في تلك البرية قرب الأردن ؟ فأجابني مباشرة أنه يوجد في غرفة طعامه عشبة ، غالباً ما تقدم للرهبان ، وهم يدعونها angusTae أي «حبوب الجراد» وينمو هناك كميات كبيرة من هذه العشبة حول ديرهم ، وأضاف بأن هذا ما اعتاد القديس يوحنا أن يأكله ، زد على هذا غالباً ما يعثرون في هذه البراري — كما قال — على مخزون كبير من العسل البري يصنع من قبل النحل .

obeikandi.com

ومضى آخرون من رجال الدين هؤلاء الى البراري القريبة من بحيرة طبرية ، حيث غالباً ما وعظ الرب ، وحيث أطعم الحشود (متى : ١٤) بأرغفة من شعير وسمكات صغيرات ، ومجّد المنطقة بعدة أنواع من المعجزات ، وظهر هنا لحواريه بعد قيامته (آخر اصحاح من يوحنا) ، وهنا أكل وشرب معهم ، وعلى هذا البحر كان قد مشى ، وهنا دعا بعضاً من حواريه إليه قائلاً : « ورائي فأجعلكما صيادي الناس » (متى: ٤/ ٩) وهنا اختاروا مساكن خلواتهم، فسكن بعضهم في السهل ، حيث توفر كثير من القش من الأعشاب الجافة ، وسكن آخرون في الجبل المجاور الذي اعتاد الرب أن يذهب إليه ليعتكف للصلاة ، وبحيرة طبرية بحيرة ذات ماء عذب جداً ، قائمة على طرف الجليل ، وهي مليئة بجميع أنواع الأسماك ، وهي جميلة المنظر ، ممتعة أن تشرب منها ، ولأنها طويلة جداً وعريضة ، دعيت البحيرة سالفة الذكر باسم بحر ، وذلك مجاراة لما اعتاده العبرانيون والمصريون ، الذين دعوا أي تجمع من الماء «بحراً» ، سواء أكان عذباً أم مالحاً ، ويعرف أيضاً باسم بحر طبرية ، لأنه ملاصق لمدينة طبرية ، وعلى مقربة منها بيت صيدا (شيخ زياد) ، وهي مدينة بطرس وأندرو ، وهي التي مجدها الرب بحضوره الشخصي ، وتعرف أيضاً باسم بحيرة جنسارث ، التي فسرت بمعنى « توليد الريح» ، لأنه من ينابيع الجبال التي تقوم من حولها ، غالباً ما تتجمع ريح قوية ، تسبب الهيجان في البحيرة ، وتتحول الى عاصفة ، حيث تقهر الأمواج العالية السفن الصغيرة ، ويجري نهر الأردن في بحيرة جنسارث المتقدمة الذكر من نبعين اسمهما : «أر» و «دان» ومنهما استمد كل من مياهه واسمه ، وهما قرب قيسارية فيليب عند سفح جبل لبنان ، ومن هناك يتدفق في كتلة واحدة من الماء ، ويجري لحوالي المائة ميل ، فيروي المناطق المجاورة ، ثم يسيل عبر الوادي الرائع الذي يدعى وادي

الملح ، الى البحر الميت ، وهناك يجري ابتلاعه ولا يظهر مرة أخرى ، وهذا قرب مكان يدعى زغر ، ويعرف في هذه الأيام بشكل عام باسم « البحر المرّ» paumier كما ويدعى البحر المتقدم الذكر باسم « بحيرة اسفلت » و«البحر المالح » لأنه مالح جداً ، ومرّ الى درجة أنه لا الانسان ولا الحيوان يمكنه أن يشرب منه ، وغالباً ما يقال له « بحر الشيطان » لأنه لا يمكن لأي شيء حي أن يتكاثر هناك ، كما لا يمكن لأي كائن حي أن يعيش في مياهه ، وإلى جانبه هناك جبل مرتفع من الملح ، ، زيادة على هذا ينمو على أطرافه تفاح له منظر خارجي جميل ، لكن لا يوجد في داخله شيء سوى الرماد والغبار اللادغ ، لأن الرب أمطر ناراً وكبريتاً على سدوم وعموره ، وعلى مدن ثلاثة أخرى ، فقد كان سكان هذه المدن على درجة هائلة من الشرور ، وآثمين ضد الطبيعة ، يمارسون الخبائث والأمور الشائنة مع بعضهم بعضاً ، وفي هذا المكان الذي يدعى بنتابولس Pentapolis (المدن الخمسة) تقوم البحيرة المتقدمة الذكر ، التي لا يمكن لانسان إدراك قعرها ، لأن الرب بعدما أمطر النار على هذه المدن ، ألقى بها في قاعها الذي لا يدرك، ويقدم نهر الأردن الذي أتينا للتو على ذكره كثيراً من الخدمات لجميع المنطقة القائمة بين ذلك المكان وجبل لبنان، لأنه يروي الحدائق ويجعل الأرض تحمل فاكهة، وهو يعطي ماء عذباً للشرب وكميات من الأسماك للأكل، وشواطئه جيدة لنمو القصب أو البوص، حيث يستخدمه الناس لسقف منازلهم، وتغطية جدرانهم، ويتساقط القطر الحلو من قصب السكر الكثير جداً الذي ينمو في الحقول القائمة على طرف النهر، ويعطي هذا القصب وفرة عظيمة من السكر. واعتاد الحجاج، لابل حتى السكان المحليون على غسل أجسادهم وملابسهم بورع عظيم في مياه الأردن، لأن مخلصنا قد تعمد فيه من قبل القديس يوحنا المعمدان، وقدس هذا النهر بملامسة جسده الأعظم طهارة له، ومنح طاقة مولدة وأضفاها على مياهه، زد على هذا تولى الثالوث المقدس

كلـه تقـديس هذا النهـر السعيـد والجليل جـداً، لأن فوقـه سمع صـوت الأب، وفيه رؤيت الـروح القدس على شكل حمامة، وجرى فيـه تعميدهم الابن على شكل انسـان،(متى: ٣ ٠ مـرقص: ١ ٠ لـوقـا: ٣)، ثم إن كثيراً من كـلا الجنسين، من الـرجـال والنسـاء قـد جـرى تعميـدهم من قبل القديس يوحنا في الميـاه المتقدمة الذكر مع تعميد التـوبة، وحولوا أنفسهم وجعلـوها أهـلاً لتسلم نعمـة المسيح وتعميده، واعتـادوا على الغطس في الماء، وكنمـوذج على الطهـارة التي ستكـون، هنـاك مثل نعمان السـوري الـذي شفي من البرص في تلك المياه، وعـاد جلده نقيـا مرة أخـرى مثل جلـد طفل صغير، وعبر يوشع مع بني اسرائيل على ممـر جاف، في الـوقت الذي توقفت فيـه المياه وتراكمت، أما الميـاه التي هي في الأسفل فتابعت جريـانها نحو البحـر، ومن هنا من قـاع النهر أخذ بنـو اسرائيل اثني عشر حجـراً تبعـا لعـدد أسبـاط بني اسرائيل الاثني عشر، (يشـوع: ٤—٥)، وإلى هذه الأحجار نفسها أشار القديس يـوحنا المعمدان عندما قال: « إن الرب قادر أن يقيم من هـذه الحجارة أولاداً لإبراهيم»(متى: ٣/ ٩)، وعبر أيضـا إيليا واليشع فـوق الممر الجاف، وحـدث ذلك بعـدما ضرب إيليـا الماء بردائه، وباعد فيما بين طرفيه إلى هنا وإلى هناك، ولهذا اتخذ عدد كبير من المتـدينيين أمـاكن اقـامتهم إلى جـانب النهـر، بسبب قـداسـة النهـر ومواثمة مياهه.

الفصل الرابع والخمسون

لقد بنـوا ديراً على جبل الطور احتراماً وتشريفاً للمكـان، وجبل الطور جبل مـرتفع جـداً وشـديـد الانحدار، وعلى رأسـه تجلى الـرب يسـوع مع مـوسى وإيليـا بحضـور بطـرس وجيمس، ويـوحنا، مظهـراً مجد قيـامتـه المستقبلية (متى: ١٧)،والجبل المتقـدم الذكر قائم في منطقـة طبريا، ليس بعيداً عن النـاصرة، ويوجـد عند سفحـه مسيل كيشون، وعلى طـرف منه

جبال جلبوع (فقوعه) وعلى الطرف الآخر منه بحيرة طبرية، وفيما يتعلق بهذه الجبال، يعلن عبثا بعضهم بأنه لاينزل عليهم لامطر ولاندى مطلقاً، ومراراً قد تبرهن هذا أنه مزيف، وذلك من قبل الذين يسكنون في الجوار، وبنى أتباع الرهبة السسترشيانية والبريمونستراتنشيانية Pre-monstratensianأيضاً أديرة في أمكنة مناسبة لهم، وترك كثير من الناس بلادهم وأقربائهم وبيوت آبائهم، وذلك رغبة منهم بالأرض المقدسة، ومع أن الازدحام وضغط الناس معيق للدين لقد اختاروا وفضلوا العيش وسط جمهور الناس على أن يحرموا من ميزه فضيلة العيش في المدن المقدسة مثل القدس، وبيت لحم والناصرة، التي مع أنها بقع تعبق بالشذى، إنها تعبق أكثر بحضور المخلص، لأنه في الناصرة حملت العذراء مريم بالرب بوساطة الروح القدس، وقد ولد في بيت لحم، وفي القدس صلب من أجل خلاصنا، ومات ودفن.

الفصل الخامس والخمسون

القدس هي مدينة المدن (مراثي إرميا: ١/ ١) وقدس الأقداس، وعظيمة بين الأمم، وأميرة بين المقاطعات، وبامتياز خاص دعيت مدينة الملك العظيم، وهي قائمة في وسط الأرض، وفي قلب العالم، وكل الأمم تجري إليها (إشعيا: ٢/ ٢)، وكانت ملكاً للبطارقة، والأم الحاضنة للأنبياء، والمعلمة للرسل، ومهد ايماننا، وبلد ربنا، وأم الايمان، حتى مثل روما التي هي أم المؤمنين، ولقد اختيرت من قبل الرب، وقدست من قبله، لسيره بها على قدميه، ومجدت من قبل الملائكة، وترددت عليها كل أمه تحت قبة السماء، وتقوم القدس على جبل مرتفع، مع منطقة تلية تحيط بها من كل جهة، في تلك المنطقة من سورية التي تدعى اليهودية وفلسطين، وهي تفيض بالحليب والعسل، وفيها وفرة من الحبوب، والخمرة والزيت، وجميع النعم الدنيوية، وهي على كل حال تفتقر تماماً

إلى الأنهار، كما أنه ليس فيها أية ينابيع باستثناء نبع واحد يدعى سلوان، الذي يتدفق تحت جبل صهيون في خلال وسط وادي يهو شافاط، ويعطي هذا النبع أحياناً وفرة من المياه، مع أن مياهه بالعادةقليلة جداً، أو تنعدم تماماً هناك، لكن يوجد في المدينة وفي خارجها الكثير من الصهاريج من مياه الأمطار، وهي كافيه لكل من البشر والبهائم ولجميع الاحتياجات الأخرى، وللمدينة العديد من الأسماء، وهي متنوعة تبعاً لتقلبات أيامها، ووفقاً لمختلف الأمم واللغات، ودعيت أولاً باسم يبوس، وبعد ذلك باسم سالم، ومن هاتين الكلمتين جاءت التسمية الثالثة، أي أورشليم، ودعيت أيضاً باسم سوليما وهيروسوليما، ولوز، وبيت ايل، وكان آخر الأسماء التي حملتها هو اسم إيلياء، وذلك نسبة إلى إيليوس القسطور(كذا) الروماني الذي أعاد عمارتها، وذلك بعد دمارها من قبل تيتوس وفاسبيان،وكان أول أساقفتها جيمس الرسول الذي ضرب في القدس بهراوة القصار، وانتقل إلى الرب شهيداً، وامتلكت القدس بعده مجرد أساقفة عاديين بدون مكانة أو تمجيد، وذلك حتى أيام الامبراطور جستنيان، ففي أيام هذا الامبراطور المحب للرب، وزوجته الامبراطورة التقية، وفي أثناء مجمع مسكوني عقد في القسطنطينية، وصدوراً عن الاحترام للمدينة المقدسة عينوا فيها بطريركاً، وأعطوه بعض الأساقفة المساعدين الذين أخذوهم من الاسكندرية ومن انطاكية، لرؤيتهم أن هذه البطركية قد تأسست على حدود هاتين المدينتين، وبالنسبة لكنيسة الرب يأتي ترتيب بطريرك القدس الرابع بعد الكرسي الرسولي، وله تحت سلطانه أربعة مطارنة، الأول بينهم هو مطران صور الذي له سلطة على أربعة أساقفة مساعدين، هم: أساقفة عكا، وصيدا، وبيروت، وبانياس، وبانياس هي المدينة التي تعرف الآن بشكل عام باسم بلنياس، وهي واقعة على سفوح جبل لبنان، وهي على مقربة من مدينة دمشق، وهي تشكل حدود أرض الميعاد، والمطران الثاني، أو رئيس الأساقفة، هو رئيس أساقفة قيسارية، الذي تحته أسقف مساعد واحد، أي أسقف سبسطية.

الفصل السادس والخمسون

وكانت سبسيطة تعرف باسم قديم آخر هو اسم السامرة، حيث فيها دفن يوحنا المعمدان، وإيليا، وعوبديا النبي، وليس للمدينة المسماة حيفا أو بورفيريا أسقفاً، بل تقع مباشرة تحت إدارة رئيس أساقفة قيسارية، والمطران الثالث هو مطران الناصرة، الذي لديه أسقفاً مساعداً واحداً، هو أسقف طبرية،وطبرية هي مدينة قائمة على شاطىء بحر الجليل في منطقة الجليل، وتكثر فيها الحنطة والخمرة والأسماك، وكان مقر رئيس الأساقفة فيما مضى في مدينة سيتوبولس Citopolis (سكيثوبولس) التي تدعى الآن بيسان، وهي قائمة فوق سهل قائم بين جبال جلبوع (فقوعة) ونهر الأردن، وهي مدينة كثيرة الثمار، وتروى بمياه جداول وآبار، وكانت طبرية فيما مضى مقر مطرانية فلسطين الثالثة وجميع الجليل، لكن المقر نقل الى مدينة الناصرة، بسبب عظمة المكان واحتراماً لمفهوم الرب، والمطرانية الرابعة هي مطرانية البتراء التي تمتلك أسقف مساعد واحد، هو الأسقف الاغريقي (الأرثوذكسي) لجبل سيناء، والمقيم في كنيسة القديسة كاترين العذراء، وهناك راعي دير الرهبان الموجود في ذلك المكان، والبتراء قلعة حصينة جداً، وهي التي تدعى باللغة العامية باسم الكرك، وبتراء القفار، وهي قائمة في منطقة هضبية مرتفعة بعض الشيء، فيما وراء الأردن على حدود مآب، وهي المدينة الحاضرة للعربية الثانية، وهي المكان الذي تحدث عنه النبي إشعيا بقوله :« أرسلوا خرفان حاكم الأرض من سلع (جانب البتراء) نحو البرية» الخ، (أشعيا: ١٦/ ١)، وهي على مقربة من مدينة قديمة جداً تدعى ربوث Rabboth، التي قتل أمام بابها أوريا بتحريض من داود.

الفصل السابع والخمسون

ولبطريرك القدس أيضاً أساقفة مساعدين، هم تحت سلطته المباشرة، ومن هؤلاء على سبيل المثال، أساقفة بيت لحم، والخليل، واللد، وكانت كنيسة بيت لحم ديراً للكهان المترهبنون حتى أيام الملك بلدوين، أول الملوك اللاتين لمملكة القدس، وصدوراً عن احترام عظمة المكان، وتمجيداً لمكان ميلاد الرب، رقاها إلى مرتبة كاتدرائية، وأقام فيها أسقفاً، تحت اشراف البابا باسكال صاحب الذكرى الطيبة وبمباركة منه، الذي منحه اشرافاً مباشراً وسلطة على مدينة عسقلان، وبالطريقة نفسها، رقيت كنيسة الخليل، التي كانت من قبل ديراً، إلى مرتبة أسقفية، بسبب عظمة المكان، حيث دفن فيه آدم وحواء، وثلاثة من الآباء هم: إبراهيم، واسحق، ويعقوب مع سارة ورفقة، وقد دفن الجميع في كهف مزدوج، وجاء هذا العمل أيضاً احتراماً لعبيد الرب، والاسم القديم لحبرون هو «أربعة» و «قريات أربعة». وعرفت مدينة اللد في يوم من الأيام باسم ديوسبولس Diospolis ، وتدعى في هذه الأيام باسم القديس جرجس.

الفصل الثامن والخمسون

وزيادة على ماتقدم كان تحت سلطة البطريرك المتقدم الذكر، رعاة ديره ورؤساء رهبان لهم الحق في حمل شارات التمجيد الحبرية، من ذلك: العصا، والتاج الأسقفي، والخاتم، والصندل، وهم يساعدون بكل احترام السيد البطريرك في القداسات الدينية، وللكنيسة البطركية التي هي كنيسة الضريح المقدس، عند سفح جبل الجمجمة، رهبانها المنتظمون الذين يرتدون الألبسة الكهنوتية في ظل أحكام القديس أوغسطين، ولهم رئيس الذي واجبه مع الرهبان السالفي الذكر القيام بانتخاب البطريرك،

الـذي هو بمثـابـة راعي دير بـالنسبـة لهم، وفي كنائس هيكل الـرب على جبل صهيـون وجبل الـزيتـون رعـاة ديـرة ورهبـان يتعبـدون الـرب وفقـاً لأحكام النظام المتقدم الذكـر أي نظام القديس أوغسطين، وفي كنائس أو ديـرة (القديسـة مـريم) اللاتين، وتلك التي في وادي يهوشـافـاط، يوجـد رعاة ديـرة مع رهبـان سود، يتعبدون الـرب وفقاً لأحكـام نظام القـديس بنت Benet ،وفي بيت حنينا، التي هي قرية مريم، ومرثا، وقرية أخيهما لازاروس (لعازر)، والتي هي على مسافة خمس عشرة غلوة Stadia ، عن القدس، وراء جبل الـزيتون على منحـدرات ذلك الجبل، في هذه القـرية ديـر القديس لازاروس (لعـازر)، ويدعى بيت حنينـا، حيث هناك راعيـة ديـر سوداء وراهبـات، يأخـذن بأحكـام وتنظيمات القديس بنت، وهنـاك بيت حنينـا أخرى (بيـت عبرا وراء الأردن) حيث قام يـوحنـا بالتعميـد. وينتمي إلى هذه الطريقة نفسها ديـر القديسة حنة، التي حملت أم الرب، وهو قائم قرب الباب المدعو باب يهوشافاط، قرب بركة الضأن، في البقعة التي يقال بأن مـريم المباركة قد ولـدت فيها، وهناك يوجد راعيـة دير مع راهبات سوداوات يتعبـدن الرب في ظل أحكام نظام القـديس بنت، وهو أشبه بوعـاء للبخور، كان مليئاً بشخصيات مقدسـات، وورعات وتقيات، من الـلائي مع أنهن لم يـرغمن بـوساطـة أيـة معيقـات أو بالفقـر فقـدن الالتـزام الصـارم لـديـانتهـم، وشرف وأمـانـة حيـاتهم، ودفء حنـانهم وإحسانهم، ويوجد على جبل الطور هنـاك دير للرهبان السود تحت سلطة رئيس أساقفة الناصرة، وليس لمدينة يـافا أسقف، بل تدار مباشرة من قبل رئيس وكهنـة الضريح المقدس، ومثل هـذا مدينـة نابلس —التي تعـرف (وهماً) في الانجيل بـاسم سوخـار (يوحنـا: ٤)، حيث هناك بئـر يعقوب، الذي إلى جـانبه تحادث الرب مع المرأة السامـرية— ليس لها أسقف، بل تتبع مبـاشرة إلى راعي ديـر هيكل الـرب، وهنـاك أيضـاً كثير من المدن الأخرى في أرض الميعـاد، كان فيهن أسـاقفة مـن كنائسهن السريـانية أو الأرثوذكسيـة (الاغريقيـة) وذلك قبل عصر اللاتين، لكن بسبب عـددهن

وفقرهن تولى اللاتين اخضاع كثير من الكنائس الكاتدرائية، وكثير من المدن لمدينة كاتدرائية واحدة، وذلك خشية من تقليل قيمة مرتبة الأسقف ومكانته، ودعونا الآن نضيف وصفاً لهذه الأماكن اللائي لهن مكانة سامية بسبب قداستهن بين الأماكن المبجلة الأخرى.

الفصل التاسع والخمسون

الناصرة مدينة صغيرة، قائمة تقريباً عند مدخل الجليل، وتقوم بين جبلين، وبينها وبين صفورية هناك نبع يتدفق بمياه صافية، ومياهه المنبعثة منه غزيرة، وهو يعرف باسم نبع (عين) الصفورية، واعتاد ملوك القدس أن يحشدوا هنا جيوشهم بسبب منافع الماء المتوفرة هناك، ولتوفر الكلأ، وتبعاً لبعضهم، ولدت العذراء مريم المباركة في هذه المدينة (لوقا: ١)، ومما لاشك فيه أن العذراء المقدسة قد عاشت هناك بعد خطبتها ليوسف، وإلى هاهنا أرسل الملك ليعلن بداية خلاصنا، وهذه المدينة المقدسة هي محبوبة الرب [ففيها صارت الكلمة جسداً (يوحنا: ١)، والزهرة التي فاق شذى أريجها كل الطيوب، نمت في رحم العذراء، ولهذا فسر اسمها بشكل صحيح أنه الزهرة] .وتتميز هذا المدينة على سواها أنه فيها تمّ الحمل بالرب صاحب انقاذنا، وفيها نشأ وتربى، وتحت قدميه وضع الرب كل الأشياء في الأرض والسماء، وتلطف بجعلها خاضعة لوالديه، وتقوم بيت لحم على سفوح جبال القدس، ليس بعيداً عنها، أي أن تقول تبعد أربعة أميال عن المدينة المقدسة، ومعنى كلمة بيت لحم: بيت الخبز، ففيها ولد الخبز الحقيقي الذي نزل من السماء، ويوجد في مدينة داود هذه الكنيسة الكاتدرائية المقدسة والمبجلة، التي كرست للعذراء المباركة، وهنا أيضاً المزود الذي تلطف للتمدد فيه، وهو الذي عرشه السموات، والأرض موطىء قدمه (إشعيا: ٦٦/ ١)، وقد وضع تبعاً للجسد في القش لتغذيه المخلوقات التقية (لوقا: ٢)، وهنا

المكان الذي وجد فيه الرعاة —بناء على أمر الملائكة— الطفل ملفوفاً بقماط من ثياب رثة مع أمه مريم، وإلى هناك جاء المجوس الثلاثة، الذين استرشدوا بالنجم، فوصلوا إلى المدينة المتقدمة الذكر، وعبدوا بتواضع الملك الذي قد ولد، وقدموا إليه بعض الهدايا الرمزية، وهنا في هذه المدينة قام الملك الآثم هيرود، عدو الايمان، في أثناء بحثه عن المسيح، بقتله بوحشية عدداً من الأطفال الصغار، وهنا أيضاً ضريح راحيل زوجة يعقوب، التي توفيت في هذا المكان نفسه بعدما ولدت بنيامين، ومن هنا جاءت المرأة نعمى التي جلبت راعوث المآبية من البتراء في الصحراء، وهي التي اتخذها بوعز زوجة له، والتي من نسلها كان الحمل، سيد الأرض، حيث جاء لابنة صهيون (إشعيا: ١٦/ ١)، واشتاق داود لمياه بئر بيت لحم، رغبة منه في شرب ماء الحكمة والانقاذ من بئر العذراء المباركة، واختار القديس جيروم، الذي تولى ترجمة الكتابات المقدسة إلى اللاتينية السكني في هذه المدينة المقدسة، والمحبوبة من الرب، حيث هناك تعبد الرب، وهناك دفن جسده الثمين المصنوع من طين، ووهبت بولا المقدسة وكذلك ابنتها يوستوكيوم Eustochium وكذلك عدد كبير من العذراوات الأخريات، وهبن أنفسهن وكرسوها على عبادة الرب، والتأمل اللاهوتي، في دير هناك، واحتقرن كل مظاهر البهجة الخارجية في سبيل حب مولانا يسوع المسيح، وتفانيا من أجل هذا المكان المقدس.

الفصل الستون

تتفوق مدينة القدس ا — التي صنع فيها الرب وهو ظاهر بجسده ، أسرار خلاصنا — على غيرها من الأماكن والمدن في قداستها ، كما وتتفوق أيضاً بعظمتها ، حتى كأنها حقل مثمر يفوح شذى لأن الرب قد باركه ، ولهذا جذبت إليها عدداً كبيراً من

الرجال المتدينيين ، الذين زاروا الأماكن المبجلة الكثيرة في أوقات مختلفة مناسبة ومواسم ، مع توقد بالروح ، انبعثت وتصاعدت وصولاً الى حد الانقطاع التعبدي الكلي ، وذلك واحداً تلو الآخر ، ولم تعان أرواحهم ، لتتراخى من خلال إعيائهم ، بل أبقتهم متيقظين من خلال عبق حبهم ، وتقوم هذه المدينة التي غالباً ما ذكرت وستظل تذكر ، تقوم كلها على جبل مرتفع ، وهي محاطة من جميع الجهات بوساطة سور قوي ، وهي لا تشعر بالضيق لصغرها الى أبعد الحدود ، ومثل هذا ليست منزعجة من حجمها الكبير الزائد ، وقياس امتدادها من سور الى آخر هو أربع رميات قوس ، وفيها في الجانب الغربي قلعة من الحجارة المربعة ، مبنية بشكل متماسك غير قابل للكسر ، بوساطة الملاط والرصاص المذاب ، وهي تقوم من أحد الجوانب بمثابة سور للمدينة ، وتعرف باسم برج داود ، وعلى الجانب الجنوبي للمدينة جبل صهيون ، حيث سكن داود في قلعة صهيون بعدما طرد منها اليبوسيين ، ودعاها باسم «مدينة داود » وعلى جانبها الشرقي يقع جبل الزيتون ، وجبل أكرا (الجمجة) هو المكان الذي صلب عليه الرب ، ويعرف الآن باسم الجلجلة ، وموقع ضريح الرب قائم قرب ذلك المكان عند سفح جبل أكرا (الجمجمة) وظل حتى أيام الامبراطور إيليوس هدريانوس خارج أسوار المدينة ، لأن الرب تألم ودفن خارج الباب ، لكن ايليوس هدريانوس المتقدم الذكر أعاد بناء المدينة التي هدمها تيتوس وفسبسيان ، وقد بناها بشكل لائق ، ورصف شوارعها وأزقتها ، وعمل مصارف من خلالها يمكن في أيام المطر للمدينة أن تتنظف من أوساخها .

الفصل الحادي والستون

وقد قام بتوسيع المدينة كثيراً ، الى حد أنه أدخل مكان ضريح الرب داخل إطار الأسوار ،وفيما بعد بنى المسيحيون فوق هذا المكان، وصدوراًعن الاحترام لضريح الرب ، كنيسة القيامة الرائعة ، بنوها بمهارة واتقان على شكل فوريوم ، له شكل دائري مع فتحة من الأعلى ، وبذلك شكلت هذه الكنيسة مثلاً يحتذى ويقلد من قبل جميع الأماكن المقدسة الأخرى ، والمبجلة ، ففي هذا المكان تمدد جسد الرب الثمين بشكل لائق مع المر والألوة حتى اليوم الثالث ، لكنه قام في اليوم الثالث من جديد ، وهنا ظهر الملائكة إلى المرأة ، وغدا الجنود الذين تولوا حفظ الضريح وكأنهم رجال موتى، ومنذ ليلة قيامة الرب فصاعداً صارت النار المقدسة تنزل من السماء ،والآن عندما تجري في كل أنحاء الدنيا قراءة كلمات :« قام الرب من الضريح ، وهو الذي من أجلنا على الشجرة » ، عندما تقرأ هذه الكلمات للمؤمنين ، نجد كهنة كنيسة الضريح المقدس ، يتمتعون لوحدهم بامتياز القول :« قام الرب من هذا الضريح » ويشيرون بشكل مرئي الى ذلك المكان ويحدث مثل هذا عندما نقرأ في الإنجيل من أجل عيد الفصح :« إنه ليس هنا ،هو قد قام » ، يقوم الشماس الذي يقرأ الانجيل بالاشارة بإصبعه إلى ضريح الرب ، ويقوم المكان المدعوأكرا (الجمجمة) ، والذي اسمه بالعبرية الجلجلة ، الى جوار كنيسة ضريح الرب ، وهو رفيع المكانة جداً بين الأماكن المقدسة ، وله قوة مؤثرة كبيرة جداً على القلب بسبب ذكريات آلام الرب ، وهنا عانى الرب من أجل خلاصنا ، فقد جرد من ملابسه، ووضع على الصليب ، وثبت على الصليب بالمسامير ، وقد أعطي المرّ والخل ليشرب ، وسخر منه من قبل اليهود وعدّ مع المعتدين ،

وحكم عليه بالموت بشكل مهين ، وصلى من أجل قاتليه وعهد بالعناية بأمه الى حواريه ، ووعد اللص بالخلاص ، وبكى بصوت مرتفع ، وسلم الروح وهو يبكي ، وسال منه الدم والماء من جنبه ليغسل العالم ، وهنا تقاسموا ملابسه فيما بينهم ، ورموا القرعةعلى ردائه واهتزت الأرض وتشققت الصخور وسقط دمه على الأرض وأظلمت الشمس واختفى الضوء منها وعندما يزور الحجاج هذا المكان المقدس تلامس هذه الأشياء قلوبهم المرهفة والمتواضعة ، وتسبب معاناة الآلام ذرف دموع الحزن والأسى منهم

والآن إنه بالنسبة لمدينتنا القوية ، صهيون جبل يتسم بالوفرة ، حيث الرب كان مسروراً بالسكنى به ، وهو جبل يدر الحلاوة لا بل يدر حتى أقراص العسل والورود ذوات الأريج الطيب ، وهو يلامس شغاف القلب ويجلب الراحة ويعيد عقل التقي ، وبواسطة قداسته المتناهية ينشط العقول ويغذيها ، وبقي الرب هنا مع حواريه ، ووضع منشفة حول وسطه ، وغسل أقدام الحواريين ، ضارباً مثلاً بالتواضع ، ثم ارتدى ملابسه مرة ثانية وأكل وشرب مع حواريه ، وأقر قواعد العهد الجديد ، حيث الخبز تحول الى جسده والنبيذ الى دمه ، وعلم حواريه بكلام مقدس ، وهنا إتكأ يوحنا على صدره المقدس ، وهنا سكنت العذراء المقدسة بعد وفاة ابنها طوال المتبقي من حياتها مع يوحنا ، الذي إليه عهد بأمر العناية بها ، وهنا ظهر الرب لحواريه فيما هم جلوس وراء أبواب مغلقة ، زيادة على هذا ، بقي الحواريون في هذا المكان ، بعد صعود الرب حتى يوم عيد الحصاد ، وذلك بانتظار قدوم الروح القدس ، وكانوا طوال ذلك الوقت صائمين مصلين ، وعندما جاء يوم عيد الحصاد ، ازدادت قوتهم بتلقي روح القدس على شكل لهب النار ، وكان ذلك مع معرفة كل اللغات ، وفوق ذلك المكان اجتمع حشد كبير من اليهود ، لدى سماعهم صوتاً مفاجئاً من

السماء ولهم شرح القديس بطرس نبوءة يوئيل ، وتولى تحويل كثيراً منهم للايمان بالرب ، وجعلت جميع هذه الأشياء هذا المكان متفوقاً بمجده على جميع الأماكن المقدسة الأخرى ، ومنحته وقاراً خاصاً وعظمة مميزة

الفصل الثاني والستون

وهيكل الرب المقدس ، الذي بنى على جبل موريا من قبل سليمان، على أرض بيدر أورنان اليبوسي ، ليس هناك ما يضاهيه بالقداسة والمكان المبجل ، ومع ذلك كان قد دُمر أولاً من قبل البابليين ، وبعد ذلك من قبل الرومان ، ومع هذا أعيدت عمارته مرة أخرى على البقعة نفسها من قبل المؤمنيين والرجال المتدينيين على شكل بناء مستدير بمهارة معماريه وبراعة متفوقة بجمالها وبأبهتها ، وفي هذا المكان ، وعلى الصخرة التي ما تزال في الهيكل ، يحكى بأن ملاك التدمير قد وقف وظهر لداود ، وقد تولى هذا الملاك نفسه قتل آلاف كثيرة من الشعب الاسرائيلي بسبب الذنب المتعلق بتعداد الناس،الذي أجري بناء على أوامر داود،ولهذا السبب يدعو المسلمون حتى هذا اليوم هيكل الرب باسم«الصخرة»،وينظرون إليه نظرة وقار عظيمة الى حد أن مامن واحد منهم يتجرأ على تدنيسه بأي نوع من أنواع الدنس،كما يفعلون بالأماكن المقدسة الأخرى،ومنذ أيام سليمان حتى الآن يأتون من مناطق بعيدة للتعبد هناك،وكلما استولوا على المدينة المقدسة يقيمون تمثال(كذا)محمد«ﷺ» في الهيكل،ولايدعون مسيحياً يدخل الى الصخرة المتقدمة الذكر حتى هذا اليوم،ولهذا أمر الملك يوشع ملك اسرائيل— وقد رأى أن خراب المدينة بات قريباً رأي العين— بوضع قدس الأقداس في الهيكل في مكان خفي،هذا ونقرأ في سفر المكابيين الثاني أن النبي إرميا توجه الى الجبل الذي صعد ه موسى ،ورأى ميراث الرب

هناك حيث أخذ خيمة العهد ، والتابوت ، ومذبح البخور ، ووضعهم في كهف وجده هناك ، ووقف عند باب الكهف قائلاً: « إنه بالنسبة لهذا المكان سيبقى غير معروف حتى الوقت الذي سوف يجمع فيه الرب شعبه ولسوف يظهر مجد الرب »، وحدث في هذا المكان المقدس والمبجل ، أنه عندما أنهى سليمان عمله ، وكان يقدم أضحية الى الرب ، أن قامت غمامة فملأت البيت ، وظهر مجد الرب ، ونزلت نار من السماء والتهمت تقدمة الحرق والأضاحي ، وملأ مجد الرب البيت ، ولم يتمكن الكهنة من الدخول الى بيت الرب : وهكذا رأى أبناء اسرائيل كيف نزلت النار، ورأوا مجد الرب على البيت، ثم جثا سليمان على ركبتيه وبسط يديه نحو السماء وصلى الى الرب داعياً : أن كل من يدخل الى الهيكل ويسأل شيئاً ما ، على الرب الاصغاء الى دعائه ، وظهر الرب اليه قائلاً:« لقد سمعت دعاءك ، والتقدمات التي وضعتها أمامي ، ولقد قدست هذا البيت الذي بنيته لي ، والآن إن عيني ستظل مفتوحتان ، وأذني تصغيان الى الدعاء الذي يصنع في هذا المكان ، لأنني اخترت هذا المكان لنفسي ، ولنفسي قدسته » ، ونقرأ في سفر المكابين الثاني أنه عندما جرى ارسال هيليود وروس He-liodorus من قبل الملك انطوخيوس (اقرا: سلوقس) ليقوم بخرق حرمة المعبد ، وليأخذ بالقوة المال الذي كان مودعاً بالخزانة ، ظهر هناك فرس على ظهره راكب مرعب ، مزين بغطاء جميل جداً ، وركض الفرس مسرعاً وبحدة ركل هيليودوروس بقائمتيه الأماميتين ، وبدا الذي جلس على الفرس لديه مقود كامل من الذهب ، زيادة على هذا ظهر أمامه رجلان شابان ، عظيما القوة بهيان بالجمال ، وحسنا اللباس ، ووقفا الى جانبه كل واحد منهما على طرف وجلداه بشكل مستمر ، وسددا اليه الكثير من الضربات المؤلمة ، وقيل إنه هنا خدمت العذراء المباركة قبل أن تخطب الى يوسف، وذلك مع فتيات أخريات ، كن يعملن على تجهيز الأوعية والملابس للكهنة

الـذين كـانـوا يـدرسـون الكتابـات المقـدسـة ويصـومـون ، ويتأملـون، ويصلون ، ويـدرسون بحكمـة وبتواضع النصـوص المقدسـة فضلاًعن هـذا عندمـا جلبت من قبل والـديها الى الهيكل ، وهي طفلـة ، لتمثل أمام الرب ، يحكى بأنها صعـدت لوحدها جميع الـدرجات المؤدية الى الهيكل بدون صعوبـة ، الأمر الذي بدا أنه أمراً مـدهشاً في أعين الناس جميعـاً ، ولم يسمع بشيء من هـذا القبيـل قـد صنع مـن قَبل، من قِبل طفل صغير،وحدث في هـذا المكان أنه عنـدما كـان زكريا المقـدس يقدم بخـوراً الى الـرب،أن ظهر الملاك لـه،وأخبره أن دعـاءه قـد سُمع من قبل الـــرب—حيـث كـــان جميع الكهنـــة يصلـــون الى الـــرب في وقت البخور،ويدعـونه من أجل قـدوم المسيح وتخليص الناس—وأضـاف أن زوجته العـاقر إليـزابث ستحمل منـه ولداً،وفي هـذا المكان أحضر مـولانا يسـوع المسيح من قبل والـديه مـع حمامة وفـرخ طـائر،ووضع على ذراعي سمعان،ثم كان أن تحدثت إليهم جميعاً حنـة الأرملة المقدسةفي أن ينتظروا الخلاص في القـدس،وهنـــا،عنـدمـا وصل الى سن الثـــانيـة عشرة،ولكي يضرب مثلاً على فهمـه ودراسته للكتـابات المقدسـة،جلس وسط الحكماء يصغي إليهم ويسألهم أسئلـة،وهكذا دهش الـذين سمعوه بسبب فهمـه واجابـاته،وعنـدما صعد الى الهيكل للصـلاة،طرد من هنـاك الذين كـانوا يبيعـــون ويشترون،وقلب منـــاضـد الـــذين كـــانـــوا يقـومـــون بتبـــديل النقود،وكـذلك مقاعد الذين كـانوا يبيعون الحمام،وألجمهم بقولـه:«سوف يـــدعى بيتي بـاسـم بيت الصـلاة»،وصعـــد في احـدى المرات الى بـــرج الهيكل،حيث حاول الشيطـان إغواءه،بأن اقترح عليه أنـه ينبغي أن يرمي بنفسه الى الأسفل،وعنـدما بـاتت آلامه وشيكـة الوقـوع،كان يتـولى الوعظ والتبشير طـوال النهار،ويـذهب في المساء الى بيت حنينـا،ويعود مع بـزوغ نور الصباح،ولدى مـوته تشقق حجاب هذا الهيكل من الأعلى الى الأسفل حتى يفسح الطـريق نحـو قدس الأقـداس،وسقط من بـرج هـذا الهيكل القديس جيمس الرسول بينما كان يصلي،ثم تلقى تاج شهادته بضربة من

عصا القصار،ويوجد في القدس هيكل آخر له حجم كبير واتساع،ومن خلاله نالت الأخوانية العسكرية للداوية اسم فرسان الهيكل،وكان يدعى هذا الهيكل باسم هيكل الرب،ويقع جبل الزيتون،جبل الخصب،وجبل الزيتون،وجبل الأنوار الثلاثة،وهو التل المقدس والمقبول،على مسافة ميل من القدس، وعلى منحدره تقوم«بيت فاج»، التي تفسر بمعنى«بيت الفك»،وهي قرية الكهنة،وبيت حنينا،وهي قرية:مرثا،ومريم،ولعازر،وهناك دهنت مريم قدمي الرب،ومسحتهما بشعرها،وعندما كانت مرثا مشغولة بصنع قداس للرب،جلس عند قدميها يصغي بتشوق الى الكلمات التي كانت تتفوه بها،وعلى هذا الجبل أقام المسيح لعازر،والى هناك غالباً ماتلطف وتنازل أن يكون ضيفاً،حتى يقوم بالتبشير وصنع المعجزات،وعلى هذا الجبل الأعظم قداسة وتبجيلاً،كان الرب جالساً عليه مقابل الهيكل،عندما سأله حواريوه: ماهي العلاقات التي ستكون حول قدوم حكمه،ونهاية الدنيا؟وغالباً ماذهب الى هذا الجبل مع حوارييه للصلاة،وبخاصة بشكل أكثر كثافة عندما باتت الآلام وشيكة الحصول،وعلى هذا الجبل جرت تحيته بشكل تمجيدي من قبل الأطفال العبرانيين الذين التقوا به،وهم يحملون سعف النخيل،ومن هذا المكان سار منتصراً راكباً على ظهر أتان،مع تراتيل الكهنة،وصعد من هذا الجبل،بحضور حوارييه،بمجد الى السماء.

الفصل الثالث والستون

وهناك أماكن أخرى مقدسة ومبجلة في كل من داخل المدينة وخارجها، نذكر منها:وادي يهوشافاط،بين جبل صهيون وجبل الزيتون،ولقد أخبرنا أنه خلف وادي قدرون هناك قرية صغيرة اسمها جيسماني،وعلى مقربة منها الحديقة التي ألقي فيها القبض على الرب من قبل اليهود،وقد دفنت العذراء المباركة في هذا الوادي،ومن المعتقد أن

الرب سوف يأتي الى هنا ليحكم بالعالم،وتوجد هنا بركة استحمام سليمان حيث شفي الرجل من العمى،وهناك كنيسة القديس ستيفن، أول شهيد على تلك البقعة حيث رجمه اليهود بالحجارة.وتقوم قرية عمواس على نحو ستين غلوة بعيداً عن القدس،وعلى مقربة منها مودين،مدينة المكابيين،ومدينة جبعون أيضاً على مقربة منها،وفي مدينة عمواس قام الرب بكسر الخبز وبتقديم الشكر، وكان معروفاً بينهم تكسير الخبز،وهناك أماكن أخرى كثيرة تفضل الرب بزيارتها وبتقديسها بحضوره الجسدي،لأن أي مكان داسه الرب بقدميه عدّه المؤمنون مقدساً،وكرسوه،ومن الآثار الثمينة،ولاعجب— بناء على هذا—أن أرض الميعاد تفيض بالحليب والعسل،وهي أطيب ريحاً من العطور،ولهذا جذبت الى نفسها ليس فقط رجال الدين،أو العلمانيين،بل كل من الفرسان والمدنيين، جذبتهم الى حد التخلي عن آبائهم وعن ماورثوه عن أسلافهم، وعاشوا هنا في ظل نظام ما، وبعض هؤلاء في القدس هم الاسبتارية،أو أخوانية مشفى القديس يوحنا،وآخرون هم أخوانية فرسان الداوية،وآخرون أيضاً هم أخوانية مشفى القديسة مريم من الألمان(التيوتون).

الفصل الرابع والستون

كانت بداية مشفى القديس يوحنا في أيام السريان والأرثوذكس(الاغريق) عندما كانت المدينة المقدسة ماتزال تقبع تحت سلطان المسلمين، على النحو التالي: ومهما يكن الأمر،فقد حدث بسبب آثامنا، أنه في الزمن الذي سيطر فيه المسلمون سيطرة كاملة على جميع أرض الميعاد،مع هذا كره كثيرون من المسيحيين من الأمة السورية ترك بلادهم، واستمروا يعيشون بين المسلمين، مع أنهم أنزلوا الى حالة متدنية،واضطهدوا بنير للعبودية شديد،وكان أمير مصر،الذي كان سيداً

لجميع البلدان من اللاذقية في سورية حتى الاسكندرية التي هي أبعد مدينة في مصر،قد منح ربع مدينة القدس الى جانب الضريح المقدس الى السريان وبطريكهم للسكنى فيه،آخذين بالاعتبار دفع جزية سنوية، هذا وسكن المسلمون في الأجزاء الثلاثة الأخرى، وكان المسيحيون قد اعتادوا على القدوم من الغرب الى أرض الميعاد،بعضهم من أجل التجارة،وعرض بعضهم أنفسهم الى مخاطر عظيمة وجاءوا بدافع من ايمانهم للقيام بالحج،لزيارة الأماكن المقدسة،وكانوا يدفعون الجزية للمسلمين، وكان بعضهم من اللومبارد وخاصة من الأمالفيين،أي أهل مدينة أمالفي،التي لاتبعد أكثر من سبعة أميال عن مدينة سالرنو المجيدة،وكان هؤلاء يجلبون التجارات الأجنبية،وقد جعلوا أمير مصر صديقاً لهم بإعطائه الجزية وهدايا،وقد حظيوا بمكانة علية لديه،وبسهولة أقنعه هؤلاء الناس في أن يسمح لهم ببناء كنيسة لاتينية تبعد رمية حجر عنها، وكان السبب لهذا هو أن السوريين كانوا يتبعون عادات وأحكام الكنيسة الأرثوذكسية (الاغريقية) أثناء أدائهم للقداسات الدينية،وبناء عليه ماتزال هذه الكنيسة المتقدمة الذكر حتى هذا اليوم تعرف بكنيسة القديسة مريم للاتين،ذلك أنهم أقاموا هناك راعي دير مع رهبان يتولون إدارة القداسات وفقاً للطقوس اللاتينية،ومع مرور الأيام،كان الدير المذكور بلا أسوار،وقد رأى الرهبان فيه أنه من غير اللائق تمكين النساء من الحجاج من الإقامة فيه،ولهذا أسسوا ديراً آخر كرسوه للقديسة مريم المجدلية،وجعلوا فيه أخوانية نسائية من النساء المتدينات،ليتولين شؤون النساء اللاتينيات في ذلك المكان والترفيه عنهن،وفيما بعد ومع تدفق الحجاج الى هناك ،ولكون الديرين سالفي الذكر لم يعودوا يكفيان لإقامة الفقراء والمرضى والمصابين من الناس،قام راعي الدير المتقدم الذكر والرهبان،باختيار مكان في الموقع نفسه بجوار كنيستهم،فبنوا مشفى وبيعة لاستخدام الناس المرضى والفقراء،وكرسوهما للقديس يوحنا المعطاء،وكان هذا الرجل المقدس،مرضياً من قبل الرب

وجديراً بالثناء في كل شيء،وكان قبرصياً من حيث الانتماء،وبفضل قداسته جرى تعيينه بطركاً للاسكندرية،ولأنه كان متميزاً بكرمه وبالأعمال التقوية الأخرى، صار يدعى باسم«المعطاء»،أي أن تقول«المحسن»، ورأى في البداية راعي دير القديسة مريم اللاتيني أن المشفى المتقدم الذكر أو الـ Xenodochium ،أي مشفى القديس يوحنا كان بلاموارد وليس له لاميزانية ولاممتلكات،وبحكم مكانته الدينية السامية،اعتاد أن يزود المرضى والمحتاجين من فتات الطعام وفضلات الموائد في الديرين،ومن خلال صدقات المؤمنين،لكن عندما تفضل الرب برحمته فأمكن بوساطة الدوق غودفري وبقية الشعب المسيحي المؤمن،تحرير مدينة مخلصنا من الكفار واعادتها الى الديانة المسيحية، كان هناك رجلاً صاحب حياة مقدسة، وإيمان مجرب،اسمه جيرارد،قد قام بناء على طلب من راعي الدير بادارة شؤون الفقراء من الناس في المشفى المتقدم الذكر،لمدة طويلة وبإخلاص،وكان يعاونه آخرون من الرجال الشرفاء والمتدينيين،وقد أخذ الجميع على أنفسهم عهد الرهبان النظاميين، ووضع هو صليبا أبيض على ثيابه الخارجية فوق صدره،وربط نفسه بميثاق للاحتراف رهيب،في أن يرعى جميع أحكام النظام والعادات الحسنة،وانضم اليه في ادارته لشؤون الفقراء سيدة اسمها أغنس،وكانت من أصل روماني،وكانت نبيلة من حيث الانحدار الجسدي،لكنها كانت أعظم نبلاً فيما يتعلق بحياتها المقدسة، وكانت قد شغلت منصب راعية دير للنساء،وأخذت على نفسها الآن العهد بمراعاة أحكام النظام نفسها مع الحياة المتواضعة،وخدمت الأخت المتقدمة الذكر الرب بتواضع واخلاص، وأدارت بنشاط شؤون الفقراء والمحتاجين،وكانت تتولى دفن الموتى منهم في حقل حمل اسم أكلداما،أي حقل الفاخوري،وكان قد شري من قبل اليهود لدفن الغرباء،وكان ثمنه ثلاثين قطعة فضية،ألقاها يهوذا في الهيكل،وطوال الوقت الذي كانوا فيه فقراء لم يرفضوا طاعة راعي دير القديسة مريم

للاتين واحترامه،لأنه هو الذي أسس المشفى سالف الذكر،وأطعم فقراء مرضاه من مائدته،وقد احترموا أيضاً احتراما زائداً القديس يوحنا المعطاء،لأنه راعيهم الأول ومعينهم،ولأنه المدافع المسؤول عنهم وعن مشفاهم أمام الرب،واعترفوا به شفيعاً لهم وسيداً،وفي الوقت نفسه أطاعوا بإخلاص السيد بطريرك القدس،ودفعوا له بدون تردد عشر بضائعهم وذلك تبعاً لقوانين ومفاهيم العهدين القديم والجديد،وكانوا ملازمين للصلاة،ينهكون أنفسهم بالصوم وبالسهر،ويكثرون من أعمال الرحمة،وعاشوا عيشة تميزت بالاقتصاد والتقشف بالنسبة لهم أنفسهم،غير أنهم اعتادوا على الانفاق بسخاء على الفقراء الذين اعتادوا على دعوتهم باسم«سادتهم»، وكانوا يؤثرون المرضى بخبز القمح النقي،ويبقون النخالة لاستخدامهم الشخصي،وكان إذا ما أذنب واحد منهم واقترف أي خطيئة،لم يتركوه مطلقاً دون عقوبة،خشية أن يؤدي التساهل تجاه الذنوب الى التشجيع على اقترافها، وكانوا يعالجون الأمر حسبما يقتضيه الحال، بالنسبة لدرجة الذنب ووضع المذنب،فبعض هؤلاء كان ينزع الصليب من على ملابسهم، ومن ثم يطردون وينبذون تماماً كأنهم أعضاء فاسدين،وكان بعضهم يصفدون بالسلاسل ويودعون في السجن،وكان يقضى على بعضهم الآخر بأكل وجبات ضئيلة جداً على الأرض عند أقدام أخوانهم،حتى يكونوا قد أدوا الكفارة المناسبة، وكانوا محبوبين من قبل الجميع،لأن الرب كان معهم،ولهذا مضى صوتهم في البلاد كلها، ووصل صيت تقواهم الى أواخر الدنيا،وكان بعدما جرى استرداد الأرض المقدسة أن تقاطر الناس المؤمنون من كل أمة، وعشيرة ولغة على القدس، لزيارة ضريح الرب،وأصبحوا بفضل مساعدات الأمراء وصدقات المؤمنين في وقت قصير أغنياء جداً، وحصلوا على موارد وافرة من كل بلد في الغرب، وصاروا متملكين لبلدات وقرى ،وتملكوهاوأداروها وكأنهم سادة البلاد.

الفصل الخامس والستون

والآن بعد هذا، أخذ الناس مع مضي الوقت من جميع أجزاء العالم، من بين غني وفقير، وشاب وفتاة،وشيخ وطفل، أخذوا بالذهاب الى القدس لزيارة الأماكن المقدسة، واعتاد بعض اللصوص، وعصابات الرجالة، وقطاع الطرق على نصب الكمائن للحجاج غير الحذرين، ونهبوا كثيراً منهم، كما قتلوا بعضهم، وهنا عزم بعض الفرسان الأتقياء، الذين أحبهم الرب،بدافع من العاطفة المتشوقة لأداء الاحسان، الأمر المشهور في العالم، فجعلوا من أنفسهم عبيداً مكرسين للمسيح،وبواسطة الاحتراف الديني، ويمين التكريس،أوقفوا أنفسهم على الدفاع عن الحجاج ضد اللصوص المتقدمي الذكر،وكذلك حراسة الطرق العامة، والعيش مثل الرهبان النظاميين في الفقر والعفة والطاعة،حسبما يليق بجنود ملك الملوك،وكان مقدمومهم رجالاً محترمين مبجلين، يحبهم الرب:هيودي بينزPayens ،وجيوفيري دي سينت أومر،وفقط انخرط في البداية تسعة في هذا المشروع المقدس، وظلوا يخدمون لمدة ثمانية أعوام، يرتدون لباساً مدنياً،وذلك حسب ماناله من الصدقات، وقام الملك مع فرسانه، وقد رحموا وعطفوا على هؤلاء النبلاء السالفي الذكر،الذين تخلوا عن كل شيء من أجل المسيح، وتعاونوا مع السيد البطريرك،فدعموهم من مصادرهم الخاصة، وأعطوهم فيما بعد الهبات والمنح من أجل راحة أنفسهم،وبما أنهم لم يكونوا قد تملكوا بعد أية كنيسة خاصة بهم أو أي مقر إقامة محدد، سمح لهم مولانا الملك بالاقامة لبعض الوقت في قصره،قرب هيكل الرب،وأعطاهم راعي دير هيكل الرب مع رهبانه مكاناً مكشوفاً،امتلكوه قرب قصر الملك لاستخدامه مكاتب لهم، وبما أنهم سكنوا قرب هيكل الرب، عرفوا فيما بعد باسم«أخوانية فرسان الهيكل» وبعدما أمضوا تسع سنوات في هذا الاحتراف ،وفي فقر

مقدس،عاشوا حياتهم بشكل جماعي بفقر مقدس،وبعدما أقاموا بوئام وبتفكير واحد في البيت،حدث في سنة النعمةلـ ١١٢٨، في ظل رعاية مولانا البابا هونوريوس، والمولى ستيفن بطريرك القدس،أنهم منحوا نظاماً(طريقة)ورداءً ابيض بدون صليب مطلقاً،وجرى اقرار هذا في مجمع عام عقد في تروي Troyes في شامبين تحت رئاسة المولى أسقف ألبا،نائب الكرسي المقدس،وذلك بحضور رئيسا أساقفة الرايمس وسنس،ورؤساء الديرة السستر شيانية، ورؤساء كنائس آخرين، وحدث بعد هذا، أنهم قاموا في أيام مولانا البابا يوجينوس(الثالث:١١٤٥—١١٥٣)، بتعليق صلبان حمراء على الجوانب الخارجية من ملابسهم، واستمروا بارتداء الملابس البيضاء بمثابة رمز على البراءة، وأشاروا بوضعهم للصلبان الحمراء الى الشهادة، ووفقاً لشروط أحكام نظامهم، كانوا مكرسين لسفك دمائهم دفاعاً عن الارض المقدسة،وليتغلبوا برجولة على أعداء صليب المسيح،ولطردهم وابعادهم عن حدود المسيحية، وكانوا يباشرون القتال بناء على أمر قائدهم، وليس الاندفاع بشكل فوضوي، بل العمل بحكمة مع جميع الاحتياطات، وذلك أنهم كانوا أول من يهاجم وآخر من يتراجع، ولم يكن مسموحاً لهم بادارة ظهورهم والفرار ولا التراجع بدون أوامر، وهكذا باتوا جند المسيح الأقوياء والشجعان، مثل جيل ثان من المكابيين، الذين لم يعتمدوا على قواهم الخاصة،لكن كان أملهم في قوة الرب، وكانت ثقتهم كلها في صليب يسوع المسيح،ولقد عرضوا من أجله أجسادهم للموت، التي كانت ثمينة جداً في نظر الرب،ولقد قاتل الرب معهم، وقاتل من أجلهم، وهكذا باتوا مرعبين جداً لأعداء الايمان المسيحي،حتى اعتاد واحد منهم على مطاردة ألف وألفين منهم،لابل عشرة آلاف، ولدى استدعائهم لحمل السلاح، ماكانوا يسألون كم عدد الأعداء الذين كانواهناك،لكن أين هم،فلقد كانوا أسوداً في الحرب،وودعاء مثل الحملان في البيت، وكانوا على أرض القتال جنوداً حادين،وكانوا في الكنيسة مثل النساك أو الرهبان، وكانوا قساة

ومتوحشين نحو أعداء المسيح، لكنهم كانوا لطفاء وخيرين نحو المسيحيين، وكانت رايتهم بيضاء وسوداء،أسموها بوسنتBauceant، حملوها أمامهم، وكانت تدلل على أنهم كانوا لطفاء ورحماء نحو أصدقائهم، لكنهم سود، ومرعبين نحو أعدائهم، والآن وقد رأوا أن الحماسة الدينية لايمكن الحفاظ عليها من دون نظام دقيق، أقدم هؤلاء الرجال العقلاء و المؤمنين منذ البداية على تحصين أنفسهم، واتخاذ الاحتياطات من أجل الادارة الجيدة لخلفائهم من بعدهم، وبالعزم على عدم التراخي المطلق، أو ترك أي اهمال أو خرق لنظام أخوتهم، وكانوا يزنون بكل عناية، ويقيسون بالتمام بشاعة الجريمة، وظروف المذنب، ولقد انتزعوا من بعضهم صلبانهم وطردوهم طرداً أبدياً ،خشية أن ينقل الجدي المريض العدوى الى جميع قطيع الماشية، وحكموا على آخرين بأن يأكلوا وجبات صغيرة جداً على الارض، من دون غطاء للمائدة، وذلك أن قيامهم بالتكفير عن ذنوبهم بشكل مناسب،وبوسيلة الإهانة العلنيةهذه،يمكن أن يتوردوا خجلاً، ويمكن للآخرين أن يخافوا، وزيادة في فوضاهم وعقوبتهم لم يكن يسمح لهم بطرد الكلاب الذين أكلوا معهم،وجرت العادة بالنسبة لآخرين بصفدهم بالسلاسل، وسجنهم إما لوقت محدد، أو لمدى الحياة، وبعد هذا،ووفقاً لما يرونه مناسباً، كانوا يطلقون سراحهم من سجن جهنم،ووفق طرائق أخرى، تبعاً لمبادىء انظمتهم بشكل عام، بما أنهم كانوا متمردين ومعاندين رافضين للسير وفقاً لطرائق وأحكام النظام، والمحادثة المشرفة، وقد أظهروا طاعة لائقة واحتراماً وتواضعاً للمولى بطريرك القدس، الذي يدينون له بتأسيس حركة رهبنتهم، وتزويدهم بالأشياء الدنيوية،بإعطاء العشور وبقية الأشياء الدنيوية وفق قاعدة:«أعط ماللرب للرب،وما لقيصر لقيصر»(لوقا:٢٠ متى:٢٣)،ولم يشكلوا عبئاً على أي أحد، بل كانوا محبوبين من قبل الجميع، بسبب تقواهم وتواضعهم، وهكذا حدث أن انتشرت شهرتهم مع مجدهم،وسمعة قداستهم في جميع أنحاء العالم، مثل

وعاء البخور ذي الرائحة الفواحة، ولقد ملأ عبيرهم جميع البيت للكنيسة المقدسة،وكانت ذكراهم حلوة مثل العسل في فم جميع المؤمنين،ولسوف تتم تلاوة أخبار شجاعتهم، ومعاركهم، وانتصاراتهم الرائعة على أعداء المسيح في جميع كنائس القديسين، وحذا حذوهم فرسان من جميع أجزاء العالم— ليس الفقراء فقط، بل دوقات وأمراء— فحطموا قيودهم الدنيوية، وتنازلوا عن كل شيء في سبيل المسيح، وتدفقوا عليهم،عن رغبة منهم بالانتماء الى رهبنتهم الدينية:لقد تخلوا بالكامل عن جميع مظاهر الابهة،وغرور هذه الدنيا، وجميع مسرات الجسد، ونظروا إليهم على أنهم مجرد قذارة، وفي ظل الهام رباني تبنوا بإيمان عظيم، خدمة المسيح، وتواضع الرهبان، ولهذا تزايد عددهم في وقت قصير كثيراً، حتى بات لديهم في ديرهم أكثر من ثلاثمائة فارس،جميعهم يرتدي الأردية البيضاء، وذلك دون أن نحسب رجال الخدمة الذين كانوا لا حصر لهم، وقد تزايدوا بشكل استثنائي بوساطة ممتلكاتهم على كل من هذا الجانب وفيما وراء البحار،ذلك أنهم تملكوا القرى،والمدن والبلدات،وذلك وفقاً لطرائق أخوانية مشفى القديس يوحنا،حيث اعتادوا على ارسال مبلغ محدد كل سنة من أجل الدفاع عن الارض المقدسة،وذلك الى مقدمهم الاعلى،الذي كان مقره الرئيسي في القدس،ووفق الطريقة نفسها أرسل أمناء صناديق بيوت رهبانية مشفى القديس يوحنا— الذين يدعونهم باسم المعلمين— مبلغاً محدداً سنوياً الى مقدمهم الاعلى، لأن أخوانية المشفى المتقدم الذكر،في تقليد منهم لفرسان الهيكل أذرعة الجسد،تقبلوا الفرسان مع أتباعهم في زمرتهم،ربما ليتحقق ماتكلم به النبي إشعيا حول قيام الكنيسة ووضعها الذي ستكون عليه:«سوف أجعلك فخراً أبدياً فرح دور فدور»(إشعيا:٦٠ / ١٥)،وقوله ثانية:«الذئب والحمل يرعيان معاً والأسد يأكل ومعهما ستسكن الأغنام»(إشعيا:٦٥).

الفصل السادس والستون

والآن،بما أنه ليس من السهل قطع الثلاثي البرم،تفضلت الحكمة الربانية باضافة بيت ثالث الى البيتين المتقدمي الذكر،وهو بيت كانت الارض المقدسة بحاجة ملحة إليه،وقدتشكل وفقاً لنظامي البيتين الآخرين، واتبع هؤلاء الرجال أحكام وتنظيمات رهبانية فرسان الهيكل في كل من السلم والحرب،وكانوا مثل أخوانية مشفى القديس يوحنا يقدمون العون الى المرضى والغرباء وآخرين في مشفاهم، الذي عرف باسم مشفى القديسة مريم للتيوتون في القدس،وأن يكونوا جيدين،ويقدموا خدمة كافية مع جميع التقوى والتبجيل بطاعة وتواضع للمولى البطريرك ولبقية رجال الكنيسة الآخرين،وقدموا الأعشار الكاملة عن كل ماامتلكوه، تماشياً مع متطلبات الشريعة والأوامر المقدسة،وألا يسيئوا الى رؤساء الكنائس، وهؤلاء الذين بدأوا من مصدر ضئيل ومتواضع،قد ازداد حجمهم الى نهر عظيم، وقد خدموا القديسة مريم راعيتهم بتقوى وتواضع،لأنها جعلتهم يزدهرون، وأعطتهم الزيادة في كل من الأشياء الدنيوية والروحية، وبعدما جرى استرداد المدينة المقدسة المتقدمة الذكر،سكنت هذه المدينة من قبل المسيحيين وكثير من التيوتون والألمان الذين ذهبوا الى القدس للحج، وكانوا غير قادرين على التحدث بلسان أهل المدينة، وهنا ألهم الرب واحداً من أعيان التيوتون ومتدينيهم،ممن سكن في المدينة مع زوجته، ألهمه لبناء مشفى على حسابه الخاص،حيث يمكن فيه استضافة فقراء ومرضى التيوتون،لكن بما أن كثيراً من فقراء الحجاج اعتادوا على ارتياد بيته،حتى يمكنهم التكلم باللغة التي عرفوها،قام بموافقة من البطريرك، بإرادة طيبة فبنى بيعة خاصة قرب المشفى المتقدم الذكر، وكرسها لأم الرب،مريم المباركة، وقام لوقت طويل، وفي ظل فقر عظيم، بمعالجة شؤون المرضى والمحتاجين

من موارده الخاصة، ومن المساعدات التي كان يجمعها من المؤمنيين،ثم إن بعض الناس، وبشكل رئيسي من أمة الألمان، عندما رأوا صدقات الرجل المتقدم الذكر، وأعماله الجيدة،تخلوا عن كل ماامتلكوه، وخلعوا ووضعوا جانباً ثيابهم الدنيوية،وربطوا أنفسهم بعهد،حيث كرسوا أنفسهم للرب،وللمشفى المتقدم الذكر، لخدمة الفقراء، ومع مضي الوقت، وبما أنه ليس فقط فقراء الناس،بل الفرسان الأتقياء والنبلاء من ألمانيا،قطعوا على أنفسهم عهود المشفى السالف الذكر، واختاروا لأنفسهم عن طواعية الفقر،وفضلوا أن يسكنوا كرجال فقراء في بيت ربهم على أن يسكنوا في خيام غير الاتقياء، واعتقدوا أنه سيكون مرضياً للرب ومقبولاً لديه ليس مجرد معالجة شؤون المرضى والمحتاجين،بل أيضاً أن يكرسوا حياتهم من أجل المسيح،في أن يصبحوا جنود المسيح في الجسد وكذلك بالروح، بالقيام بالدفاع عن الأرض المقدسة ضد أعداء المسيح،وبناء عليه،لقد تبنوا—كما قلنا من قبل— أحكام وممارسات فرسان الهيكل،وفضلاً عن هذا حتى لايتخلوا عن أعمال التقوى والضيافة التي ترضي الرب،مثل مخلوقات الكتاب المقدس، الذين امتلكوا في وقت واحد وجه انسان ووجه أسد، صرفوا أنفسهم بتقوى عظيمة وبحماس للعمل في المجالين معاً،وبذلك نالوا النعمة والحظوة لدى كل من الرب والانسان،ولكي يتميزوا ارتدوا صلباناً سوداء على عباءات بيضاء فضفاضة، واستمروا حتى هذه الأيام في فقر وتواضع وغيرة دينية، وإنني أدعو الى الرب حتى يحميهم من الثروة، التي تجعل الناس متكبرين،وجشعين، ومشاكسين، وممتلئين بالقلق، ومن أعداء الدين،لأنه مالذي سيفيد الانسان إذا ربح العالم أجمع وخسر روحه.

الفصل السابع والستون

فضلاً عن هذا،ازدهرت الأرض المقدسة مثل حديقة للبهجة، وذلك بكثير من التنظيمات الكهنوتية، وبأشخاص متدينين،ونساك ورهبان،وكهنة، وراهبات، وعذارى منقطعات كرسن أنفسهن للرب،وأرامل عفيفات مقدسات، وعبقت بشذى عطر جميل كأنه صادر عن الورود، والزنبق،والبنفسج،وبارك الرب بداية السنة بخيراته، وجعل القفار زاخرة الى حد أن الأماكن التي كانت تقطنها التنينات والأفاعي كان هناك نباتات خضراء وقصب، ومع أن الرب كان قد تركها لبعض الوقت مقفرة،غير أنه بحبه العظيم ولطفه قدجمع أبناءها وحشدهم، وجعل الارض مكتظة بالسكان من مختلف الاعراق،ومختلف الالسن والامم،حيث بدا هناك تحقيق النبوءة القائلة:«يأتي بنوك من بعيد وتحمل بناتك على الايدي،حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأن تتحول إليك ثروة البحر ويأتي غنى الامم»ورأت البلاد ذلك جليا، فتعجبت، وكان قلبها مسروراً،عندما تدفقت الحشود الى هناك من البحر،خاصة من جنوى،والبندقية وبيزا،وإليها جاءت قوى الامم لاسيما من فرنسا وألمانيا،وجاءها رجال الحرب، وكانت الامة الاولى أكثر قوة في البحر،أما الثانية فكانت أقوى على الارض،والامة الاولى أفضل في القتال البحري، وأحسن قدرة على القيام بمعارك فوق وجه الماء بوساطة ممارساتهم واستخداماتهم.

أما الآخرين فكانوا جنوداً أحسن على الارض، وبارعين في الحرب،ومقاتلين أشداء على ظهور الخيول بوساطة السيف والرمح، وكان مجد المتقدمين في غلاييهم،والمتأخرين في خيولهم.والايطاليون أكثر جدية وبراعة، ويتسمون بالحكمة والحذر،ومقتصدين بالاكل، ومعتدلين في الشراب،ويلقون خطابات طويلة ومنمقة،ويتسمون بالعقلانية في

استشاراتهم،وغيورين ومتحمسين على توسيع مصالح دولهم،ولديهم الحرص والزاد للمستقبل،ولايرغبون بالخدمة تحت إمرة الآخرين، ويدافعون عن حريتهم فوق كل شيء، وهم يصنعون شرائعهم وأحكامهم الخاصة بهم تحت إمرة مقدم من اختيارهم، ويحافظون عليها بشكل دقيق،والارض المقدسة بحاجة إليهم،ليس فقط من أجل القتال،لكن من أجل أعمال الملاحة،ونقل التجارات،والحجاج،والأطعمة،ولأنهم يقتصدون بالطعام والشراب،أمكنهم العيش في الشرق أطول من الأمم الغربية الأخرى.

وإن الالمان، والفرنسيين،والبريتانيين، والانكليز،والآخرين من وراء الألب، أقل جدية، وأكثر كسلاً، وأقل عناية في معاملاتهم، وأكثر إسرافاً في المأكل والمشرب،وأكثر تبذيراً في النفقات،وأقل حذراً في الكلام،ومتسرعين وأقل حكمة في خططهم،وفي الكنيسة أتقياء، وأكثر إحساناً في تقديم الصدقات وبقية أعمال الرحمة،وكانوا أكثر شجاعة في القتال،ولاسيما البريتانيين منهم،فهؤلاء صالحين جداً للارض المقدسة،ويخافهم المسلمون الى أبعد الحدود، ونظراً لإفراطهم بالمسكرات ولطيشهم دعاهم البوليان باسم الحمقى،والبوليان هو اسم أطلق على الذين ولدوا في الارض المقدسة بعد تحريرها،إما لانهم كانوا قادمين جدد— وكأنهم فراخ، أو مقارنة بالسوريين— أو لأن القسم الأكبر من أمهاتهم— تبعاً للجسد— كن من الامة الأبولية،لأنه كان بين شعبنا الذين جلبوا الى الأرض المقدسة هناك عدد ضئيل من النساء،مقارنة بالرجال الذين كانوا في جيش الأمراء الغربيين، والذين بقيوا في الأراضي المقدسة استدعوا نساء من مملكة أبوليا،لأنها كانت الأقرب الى الأرض المقدسة من سواها،وتزوجوا منهن،وعلاوة على ذلك في الأراضي المقدسة المتقدمة الذكر كثير من الأمم الأخرى، مع عادات مختلفة، وهم يختلفون كثيراً عن بعضهم بعضاً في قداساتهم اللاهوتية وطقوسهم الدينية،ونذكر

منهم: السريان، والأرثوذكس، واليعاقبة. والموارنة، والنساطرة، والارمن، والكرج، الذين لهم فائدة كبيرة للأرض المقدسة، ولها بهم حاجة عظيمة من أجل التجارة، والزراعة، والمصالح الأخرى، ذلك أنهم يبذرون الأرض، ويغرسون الكروم، لتعطيهم غلالاً أكثر.

الفصل الثامن والستون

وعندما رأت الارض المقدسة أن الغيوم أنزلت الخصب، بناء على أمر الرب، أعطت ثمارها، وركض الناس هناك بمرح، تماشياً مع البهجة بالحصاد، وفعلوا كما يفعل الناس عندما يقتسمون الأسلاب، ونادى نبي نبي آخر، والذين سمعوه، سمعوه يقول: « هلم نصعد الى جبل الرب، الى بيت إله يعقوب»(إشعيا: ٢ / ٣)، لأن الرب زار الأرض، وباركها، وجعلها مثمرة جداً، ليس فقط من سبأ، بل من جميع أنحاء العالم، جاءوا يحملون الذهب والبخور الى القدس، معلنين الحمد للرب، وكان ضريحه ممجداً، ولهذا إن النبوءة قد تحققت حرفياً: «سيتأسس جبل بيت الرب على قمة الجبال، وسوف يعلو على جميع التلال، وسوف تتدفق جميع الأمم إليه، ولسوف يذهب كثير من الناس..... وسيقولون عن القدس الذي نقرأه في سفر طوبيا: تتلألئين بسنى بهيج، وجميع شعوب الأرض لك يسجدون. تزورك الأمم من الأقاصي بقرابينها وتسجد فيك للرب»(طوبيا: ١٣ / ١٣ — ١٤)، ثم شوهد أنه قد تحقق فيها مالم يحققه الرب في أيام اليهود، حيث ورد مكتوباً في سفر التثنية: «كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البرية ولبنان. من النهر نهر الفرات الى البحر الغربي يكون تخمكم»(تثنيه: ١١ / ٢٤)، والآن عندما تنفثت كروم الرب المتقدمة الذكر شذى حلواً يصل حتى الى نهاية البلاد، لن يستطيع الثعبان القديم، والتنين السام، عدو البشرية، تحمل هذا الأريج لوقت طويل، ولاسيما عندما يرى التغيير العظيم الذي أحدثته اليد

اليمنى للعلي الأعلى في الشرق،والتهديد الخطير، ومن ذلك نذكر وجوب اتساع الكنيسة المقدسة،وانتشار العبادة اللاهوتية،واضطراب الكفار،وسرور المسيحيين وارتفاع شأنهم، ووجوب تجدد شارات ومعجزات،مثل نزول النار في عيد الفصح من السماء على كنيسة قيامة الرب،واجتماع الناس معاً بإيمان لإظهار مجد الرب،ولتعظيم أعماله الرائعة،ولكي يتقلص الكفار،وليبتهج المؤمنون بالرب،والذي أبهره النور العظيم، وأصيب بجرح مميت،بسبب شروره،بدأ يتحرك ويخطط، ويبدع خططاً متنوعة،يمكنه بوساطتها صب سمومه بشكل سري،ويجتث كرم الرب،ويبذر بقية في حقل الرب.

الفصل التاسع والستون

وبحث(الشيطان عن مكان) يرتع فيه،فلم يجد في البداية أحداً بين أوائل الحجاج،الذين كانوا مايزالون فقراء،أضنتهم المتاعب الكثيرة،لكنه وجد في النهاية بيتاً كان فارغاً ،نظيفاً ومزيناً، والمقصود بهذا:رجال الترف، الذين كانوا يعيشون بدون خوف، والذين ازداد قمحهم وخمرهم وزيتهم،والذين كانوا ممتلئين حتى الثمالة بجميع الامتعة الدنيوية،ثم اتخذ سبعة أرواح أخرى أكثر شراً منه نفسه،أو بالحري أن تقول اتخذ سبعة ذنوب مميته،وقد دخل في هؤلاء الناس،الذين أدى بهم كفران النعمة الى الانحطاط،وباتت حالتهم الأخيرة أسوأ من حالتهم الأولى،ولقد أنتنت جراحهم، وفسدت بسبب حماقاتهم،ولقد سمنوا وغلظوا واكتسوا شحماً،ومن بين غناهم وترفهم ظهرت شرور الحماقات،وعندما أكلوا حتى شبعوا،اقترفوا الزنا،وحشدوا أنفسهم على شكل أرتال في مواخير الزواني، حتى أنهم تدفقوا مثل الماء،وسعوا وراء شهواتهم الجسدية،ولم يصبوا من إناء الى إناء،بل استلقوا مثل البهائم في روثهم، وكانوا مثل الخيول المعلوفة، يصهل كل واحد منهم خلف زوجة جاره، وقد تلاشوا وتبددوا،

ولم يعودوا يرون الشمس،ولقد أداروا عيونهم نحو الأرض، لأنهم كانوا متكبرين، ومتعجرفين،ورافضين،ومتمردين،يقاتل أحدهم الآخر، ويذرعون الخلاف بين الأخوة، وكانوا كريهين،استسلموا الى السحر والشعوذة، والى الغضب وعدم العدل،وعرفوا بالكسل والفساد،وغلب عليهم الجشع، يكثرون من الشرب،تراهم سكارى ،تلوثوا بالشرور والآثام،لصوص،وقطاع طرق،يمارسون اللواطة،ورجال دمويين،وخونة،وعاقين لوالديهم وللشيوخ، وكانوا حمقى ساذجين،ليس لديهم، لااخلاص،ولارحمة،ونستخدم بحقهم كلمات النبي:«لعن وكذب وقتل وسرقة وفسق يعتنفون ودماء تلحق دماء»(هو شع:٤ / ٢)، وبناء عليه وسع الشيطان حدود نفسه بلا نهاية، وأعدّ أماكن لكل رذيلة وجريمة ليسكن فيها، ووسع تعذيبه كثيراً، وهكذا اتجهت أفكار جميع هؤلاء الناس الأشرار نحو الشيطان، ولقد أفسدوا طريقهم على الأرض، وتبددت جميع الطيبة، والتدين الحقيقي، وفترت حماسة الكثيرين وغدت باردة، ولم يجد ابن الانسان إيماناً على الارض،لأنه بات من النادر إيجاد أي واحد يمكن أن يبدي تمييزاً بين المقدس والمدنس،أو بين الثمين والرخيص،وكان الجميع منحدرين نحو الدمار،والفوضى،ومن أخمص القدمين الى قمة الرأس، لم تكن هناك سلامة فيهم،وصار الناس سواء الكهنة فيهم والناس العاديين.

الفصل السبعون

لنبدأ بمعبد الرب،الذي يدفع العالم كله تقريباً له الجزية على شكل صدقات وتقاديم قرابين،ويقدمون مختلف أنواع الأعطيات الى رؤساء الكنائس، والكهنة النظاميين ،ولقد أطعم الرعاة أنفسهم بأخذهم الصوف والحليب من قطعانهم،دون إعطاء أي اهتمام لأرواحهم،بل إنهم ضربوا مثلاً للذين أدنى منهم،مثل ثور سمين في جبال السامرة ،ولقد

أصبحوا أثرياء من خلال فقر المسيح،ومتكبرين من خلال تواضعه،ووقحين من خلال حيائه،وسمنوا، وازدادوا ثروة بوساطة ميراث المصلوب، وعندما قال الرب لبطرس« ارع خرافي»(يوحنا:٢١ / ١٦—١٧)،لم نجد في أي مكان أنه قال:«جز خرافي»،ولقد اهتموا بأرباحهم، ولم يحرصوا على الاشياء العائدة ليسوع المسيح، وغدوا قادة عميانا لكلاب عميان وخرسان، لايمكنها العواء،وذهبوا الى بيت الرب بأبهة وفخر،وكان معهم مفتاح المعرفة،لكنهم لم ينهلوا منها،ولم يسمحوا للآخرين بالأخذ منها، ولقد أصيبوا بجذام جيحزي(انظر الملوك الثاني:٥ / ٢٧)،ولقد أقاموا في كل مكان في كنائسهم كراسي لهم،حيث يباع الحمام، وحيث موائد مال الصيارفة،التي قلبها الرب،وقالوا مثلما قال يهوذا الخائن:«ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أسلمه لكم»؟(متى:٢٦ / ١٥)،ولقد أحبوا جميعاً الهدايا،وسعوا وراء العائدات المالية،وقد أخذوا المفاتيح من سمعان بطرس وأعطوها الى سمعان مجوس،وغرقوا في الترف من مختلف الأنواع، وباتوا ضعفاء وسط كسل مخزي، ولم يكتفوا باستخدام الفتات الذي سقط من مائدة الرب،بل الأرغفة كلها التي توفرت لإطعام النسل الذي حصلوا عليه من الخليلات الفاجرات، مع فجور أعظم لأنفسهم.

الفصل الحادي والسبعون

بعد ما تأثر رجال الدين النظاميين بعدوى سموم الأغنياء، وحصلوا على كثير من الممتلكات، تخلوا عن طاعتهم لمن هم أعلى منهم، وحطموا روابطهم، وألقوا جانباً بالتزاماتهم نحو هؤلاء، وأصبحوا عدوانيين ليس نحو الكنيسة فقط وشعب الكنيسة، بل أصبحوا يحسدون بعضهم بعضاً، ويقلل أحدهم من شأن الآخر، مما شكل فضيحة قاسية للمسيحية كلها، وسعوا نحو الإهانات المكشوفة، وأظهروا الكراهية، ووصلوا إلى حد

القتال بين أحدهم والآخر، وغالباً ما تشاجروا ليس فقط بالكلمات ولكن باللكمات، وعندما شرعوا ببناء برج بابل، كانوا منفصلين، ومنقسمين بين بعضهم بعضاً بتخليط اللسان، ولم يكونوا مختلفين فقط بين أحدهم والآخر، بل أقاموا تحزبات، وتجسسوا على بعضهم بعضاً.

ومع هذا كان العديد منهم يمتلكون طباعاً أحسن، وكانوا مستقيمين ويخشون الرب، ولقد حافظوا بقدر ما استطاعوا في ذلك الحين على الأنظمة بشكل عام، وعلى المؤسسات المقدسة لرهبانياتهم، وكانوا بذلك مثل القمح بين التبن، والسوسن بين الأشواك، ولقد أحزنهم هذا، وقطع نياط قلوبهم، وأصابهم الأسى الشديد ولم «يسلكوا في مشورة الأشرار، ولا في طريق الخطاة وقفوا، وفي مجلس المستهزئين لم يجلسوا» (المزامير: ٧١). وتعاظمت أعمال اللاتقوى والانحراف عن الطريق القويم لهؤلاء الرجال الأشرار، حتى أنهم لم يخشوا من الاقدام على تقديم القربان المقدس لأناس وضعوا تحت الحرمان من قبل الأساقفة، وجرموا بالاسم، وكان الذين توجب عليهم الابتهاج معهم عندما ابتهجوا، والبكاء معهم عندما بكوا، وحدهم الذين ابتهجوا عندما بكى الآخرون،، وبناء عليه إن الالتزام بأنظمة الكنيسة بدأ يتراخى، وضرب رجال الدنيا الفاسدون عرض الحائط بقرارات الإدانة التي صدرت بحقهم من قبل أساقفتهم، ولم يعبأوا قط بسيف العدالة الروحي، ورمى رعاة الديرة، ومقدموا الرهبان مع رهبانهم المأجورين، وصغار القساوسة، جانبا الخوف من الرب، ولم يترددوا في وضع منجلهم في قمح الآخرين، وتضافروا مع الخارجين على الشريعة، أو الأشخاص الأشرار في الزواج المقدس، وزاروا المرضى بدافع الجشع، وليس بدافع الشفقة، وأقاموا القداسات لهم ضد ارادة رعاة أبرشياتهم الشرعيين، وبذلك كانوا يربطون نفوساً ويطلقون حرياتهم، أمر العناية بها ليس معهوداً إليهم، وذلك مراغمة لشريعة الرب وللقوانين المقدسة حيث يقول الرسول: « من أنت الذي تدين عبد

غيرك». (روما: ١٤/ ٤)، واعتاد هؤلاء على السماح بدفن الموتى بحرية ضد إرادة الأساقفة، وبذلك منحوا بشكل غير قانوني أنفسهم حقوق كهنة الأبرشيات، فواجبات الرهبان البكاء والصلاة وليس القيام بأعمال القداسات لعوام الناس، وليس فقط الرهبان هم الذين لم يطيعوا رؤساءهم، بل الراهبات فعلن الشيء نفسه، حيث ألقين جانياً الالتزام بالنظام، وخرجن من عزلتهن «فانهالت حجارة المعبد في رأس كل شارع» (مراثي إرميا: ٤/ ١)، وترددن بشكل لاديني على الحمامات العامة برفقة أشخاص مدنيين، وأنا لم أدون الأشياء أعلاه لأنسب جرائم سلفهم إلى الأجيال التالية، أو إلى الأجيال الحالية، لكن لكي يقوموا بغسل أيديهم بدماء غير الأتقياء، وليتعلموا تقليد الأتقياء، ولكي يكرهوا الشر ويمقتوه، ويتوجب عليهم أن يتعلموا كيف يتواضعون بأنفسهم مع المسيح، وليحتضنوا فقره بشكل نقي، وكذلك إحسانه، ولكي يقوموا بالتخلي عن العالم الخارجي، ليس فقط في ملابسهم، فبصبرهم يمكنهم اقتناء أنفسهم.

الفصل الثاني والسبعون

وكانوا كلما ازدادوا قوة وأصبحوا أعظم مكانة بين الشخصيات الكنسية والعلمانية، كلما أصبحت طرقهم أكثر دماراً وفساداً، فلقد كانوا جيلاً شريراً ومنحرفاً، وأبناء أشرار ومنحطين، ورجالاً فاسدين، هؤلاء الذين انحدروا من الحجاج المتقدمي الذكر، ومن الرجال المتدينين، المقبولين من الرب والذين امتلأوا نعمة، صافين صفاء الخمرة من التفل، والزيت من العكارة ، والقمح من البيقية، والفضة من الصدأ، ولقد ورثوا آباءهم في ممتلكاتهم، لكنهم لم يرثوهم بأخلاقهم الحميدة، ولقد بعثروا الثروة الدنيوية التي كسبها أسلافهم بسفك دمائهم، وبقتالهم برجولة ضد الكفار في سبيل مجد الرب.

ونشأ أولادهم الذين يدعون باسم «بوليان» في ترف ورفاهية، ونعومة وفسولة، وكانوا معتادين على الحمامات أكثر من اعتيادهم على المعارك، وأدمنوا الاعتياد على الحياة القذرة والصاخبة، وكانوا يلبسون مثل النساء ثياباً ناعمة، ويتزينون حتى مثل زوايا الهيكل المزخرفة، ولكم كانوا بطيئين وكسالى وجبناء ومتراخين، فهذا ما برهنوه بأنفسهم أمام أعداء المسيح، ومامن أحد يشك بالقدر الكبير الذي هم فيه محط إزدراء المسلمين، فلقد كان الحشد من المسلمين يفر من أمام آبائهم حتى لو كان عددهم قليل، فلدى سماعهم لصوتهم الذي شابه الرعد كانوا يبادرون إلى الفرار، لكنهم لايخشون الآن من أبنائهم أكثر من خشيتهم من أية امرأة، ما لم يكن معهم بعض الفرنسيين أو غربيين آخرين، ولقد أقاموا معاهدات مع المسلمين، وتراهم مسرورين لكونهم يعيشون بسلام مع أعداء المسيح، تراهم يبادرون مسرعين إلى التخاصم أحدهم مع الآخر، ويتناوشون وينشبون الحرب الأهلية فيما بين بعضهم بعضاً، وغالباً ما يستنجدون بأعداء العقيدة ليساعدوهم ضد المسيحيين، ولايستحون من تبديد القوى والأموال التي يتوجب استخدامها ضد الكفار في سبيل مجد الرب، إنهم يبددونها في القتال ضد بعضهم بعضاً ولإيذاء المسيحية، ولقد أجادوا تعلم إخفاء مقاصدهم بكلمات منمقة ، مغطاة ومزينة بأوراق لكن بدون ثمار، مثل شجرة جوز عارية، وبلغ الأمر حداً أن الذين لم يجربونهم ويعرفونهم تمام المعرفة، يتعذر عليهم فهم مقاصدهم، وكشف خداع كلماتهم، أو النجاة من أحابيلهم، وهم يشكون بزوجاتهم ويغارون عليهن، ويغلقون عليهن في سجون مقفلة، ومحروسة بكل دقة وعناية إلى حد أن أخوانهن وأقربائهن المقربين يمكنهم بصعوبة القدوم إليهن، ويحظرون عليهن حظراً مطلقاً زيارة الكنائس، والمشاركة في المسيرات والاستماع للوعظ بكلمات الرب، ومسائل أخرى تتعلق بخلاصهن، حتى أنه من النادر بالنسبة لهن الحضور إلى الكنيسة مرة واحدة في السنة، ومع ذلك هناك بعض الأزواج يسمحون لزوجاتهم

بالذهاب ثلاث مرات في الاسبوع إلى الحمام تحت حراسة مشددة، وأقدم بعض ذوي القوة منهم، بقصد اظهار أنهم مسيحيين، ولكي يسوغوا سلوكهم بعض التسويغ، على إقامة مذابح قرب أسرة زوجاتهم، ومن ثم عقد القداسات بوساطة بعض الشمامسة المحتاجين والكهنة أنصاف المشهورين، لكن كلما زاد البوليان من تضييق الخناق على زوجاتهم، زادت هذه الزوجات من ابداع آلاف الحيل، ومالانهاية له من وسائل النضال حتى يجدن طريقهن الى الخروج، فلقد تعلمن بشكل مريع ولايمكن تصديقه، السحر، ومكائد لاعدّ لها ولا حصر، وقد تعلمن ذلك على أيدي النساء السوريات، ونجد الآن أن الحجاج الذين جاءوا وسط مشاق عظيمة، ونفقات مدمرة، ومن أماكن نائية، يدفعهم الايمان لتقديم المساعدة لهم، حيث يقدمون أنفسهم وكل ما يملكون إلى الرب، نجدهم لايُعاملون بالجحود من قبل هؤلاء البوليان فقط، بل جعلوا من أنفسهم عدوانيين نحوهم بمختلف الطرق، ذلك أنهم يؤثرون الانغماس في كسلهم، وإشباع رغباتهم الجسدية والدنيوية على حرب المسلمين، عندما تخرق الهدنة أو تنتهي، ولقد أقدموا بجشعهم على أخذ مبالغ كبيرة مقابل الإسكان، والنقل، وتبديل العملة، وأنواع أخرى كثيرة من التجارة، وتولوا غش الحجاج وسلبهم، وبذلك حصلوا على ثروات كبيرة، ثم صبوا خساستهم على هؤلاء المحاربين، والمتغربين من أجل المسيح، وأهانوهم، ودعوهم بـ «الأغبياء»، وكأنهم حمقى وأنصاف عقلاء، وتولوا لوم هؤلاء الناس الذين كانوا على نية القتال لصالحهم... والأعظم من هذا كله والأشد سوءاً هو الفساد الذي لايمكن مجاراته، والشرور الهائلة لهؤلاء الناس الذين يبتهجون بفعل الشر، وينتشون في ممارسة الشرور، فلهم تمّ حفظ السواد والظلام إلى الابد، وهم في الحقيقة يمضون أيامهم وسط الأشياء الجيدة بالفعل، وسيمضون في لحظة إلى أعماق الجحيم، والآن إننا لنكره شرور غير الأتقياء، ونفعل ذلك مثلما قال النبي « إنه ليحزنني رؤية المعتدين، لأنهم لايحافظون على شريعتك». (المزامير: ١١٩/ ١٥٨)،

ومرة أخرى. (إنني أكرههم كراهية تامة، وأعدهم أعدائي». (المزامير: ١٣٩/ ٢٢)، وهكذا نودع الرب الأناس الطيبين إذا كان قد بقي أحد منهم، وإذا ما غضب أحد مما قلته، عليه أن يبرهن أنه هو نفسه ليس كذلك.

الفصل الثالث والسبعون

وبالنسبة لهؤلاء الناس الذين هم من المدن النبيلة: جنوى، وبيزا، والبندقية، مع بقية أجزاء إيطاليا، والذين يسكنون في سورية، والذين كسب أباؤهم وأجدادهم لأنفسهم شهرة لاتفنى، وتاجاً أبدياً لانتصاراتهم الرائعة على أعداء المسيح، سُوف يكونون مرعبين جداً بالنسبة للمسلمين لو أنهم توقفوا عن غير تهم وجشعهم، ولم يستمروا في القتال والخصام فيما بين بعضهم بعضاً، ولكن بما أنهم ينشبون القتال أحدهم ضد الآخر وليس ضد الكفار الخونة، ويهتمون أكثر بالتجارة والسلع من الاهتمام والانزعاج من أجل المسيح، فإن هؤلاء الذين كان آباؤهم الشجعان والمولعين بالحرب مرعبين جداً للكفار، قد جعلوا الآن من أنفسهم سببا للبهجة ولانعدام الخوف.

الفصل الرابع والسبعون

هناك قوم آخرين ، قد سكنوا البلاد منذ العصور القديمة ، وعاشوا في ظل سادة متنوعين ، وحملوا نير العبودية بشكل متتابع ، تحت سلطان الرومان ثم البيزنطيين (الإغريق)، ثم اللاتين والبرابرة ثم المسلمين والمسيحيين وهؤلاء الناس عبيد في كل مكان ، ويدفعون الجزية دوماً ، محتفظ بهم من قبل سادتهم من أجل الأعمال الزراعية والاستخدامات المرزولة الأخرى، وهم جميعاً ليسوا من أهل الحرب ،

ومثل النساء بلا فائدة في القتال ، باستثناء بعضهم الذين يستخدمون القوس والنشاب ، وهم غير مسلحين وجاهزين للفرار ، ويعرف هؤلاء الناس باسم «السوريين» ، إما اشتقاقاً من اسم مدينة صور ، التي كانت في العصور القديمة المدينة الرئيسية بين مدن سورية ، أو من اسم Syriaبتبديل حرف yبحرف u، والذين عرفوا من قبل الكتاب القدماء باسم السوريين يعرفون الآن باسم «السريان» ، وهؤلاء على العموم لا يمكن الوثوق بهم، وذوي وجهين ، وثعالب ماكرين ، مثلهم مثل الاغريق ، كذبة ، يبدلون الولاءات ، ويحبون النجاح وخونه ، ومن السهل كسبهم بالرشوة ، وهم أناس يقولون شيئاً ويعنون شيئاً آخر ، ولا يكترثون بالسرقة والسلب ، ففي مقابل مبلغ صغير من المال يصبحون جواسيس ويخبرون بجميع أسرار الصليبيين الى المسلمين ، الذين نشأوا بينهم ، والذين يتكلمون بلغتهم بدلاً من الكلام بلغة أخرى ، كما أنهم يقلدونهم بطرقهم الملتوية ، ولقد اختلطوا بالكفار ، وتعلموا أعمالهم ، ويتولون حجر نسائهم تماشياً مع اسلوب المسلمين ، ويلفونهن مع بناتهم بالثياب حتى لا يمكن رؤيتهن ، وهم لا يحلقون لحاهم مثلما يفعل المسلمون والأرثوذكس ومعظم المشارقة ، بل يعتنون بهن عناية فائقة ،ويمجدوهن تمجيداً خاصاً ، ويرون في اللحى علامة على الرجولة ، وعلى شرف الوجه ، ودليلاً على إباء الانسان ومجده ، ومثل حال الخصيان الذين هم بلا لحى تماماً ، وينظر اليهم من قبل اللاتين على أنهم أخساء ومخنثين ، وهكذا يعتقد هؤلاء أن أعظم الإهانات لا في قص اللحى ، بل بانتزاع شعرة واحدة منهن ، ولهذا عندما حلق حانون ملك العمونيين أنصاف لحى عبيد داود ليظهر استخفافه بداود ، لم يقم هؤلاء بحلاقة البقية بل اختبأ وا في أريحا حتى نمت لحاهم . ومثل هذا ، عندما أطلق بلدوين ، كونت الرها لحيته وفق الأسلوب الشرقي ، وتزوج من ابنة دوق نبيل اسمه

جبرائيل ، وكان من أصل أرمني ، لكن أرثوذكسي الديانة ، ولأنه كان رجلاً فقيراً ، ولكي ينال المال من ختنه الغني ، عندها أخبره أنه أرغم على رهن لحيته لبعض الدائنين ، مقابل مبلغ كبير من المال ، وبناء عليه دهش جبرائيل كثيراً وحزن ، وبات على استعداد لإنقاذ ابنته وصهره من عار أبدي ، وأعطاه ثلاثين ألف قطعة نقدية bezants ، شريطة أن لا يقوم بعد الآن برهن لحيته مطلقاً، مهما كان فقيراً ، أو مهما كانت المشاكل التي نزلت به . ويستخدم السريان اللغة العربية في استخداماتهم العامة وحديثهم ، كما ويستخدمون الكتابة العربية في صكوكهم وأعمالهم مع الكتابات الأخرى ، باستثناء الكتابات المقدسة والكتب الدينية الأخرى حيث يستخدمون الحروف الإغريقية وبناء عليه فإن سوادهم الأعظم ، الذين يعرفون اللغة العربية فقط لا يفهمون عليهم لدى استخدامهم في القداسات الدينية الإغريقية هذه ، بينما نجد الاغريق الذين يستخدمون اللغة نفسها في محادثاتهم العامة وفي كتاباتهم ، يستطيعون أن يفهموا على كهنتهم في كنائسهم ، وفي لغتهم المكتوبة ، التي هي لغة الحديث نفسها ، ويتبع السوريون تماماً أحكام وعادات الاغريق في الطقوس الدينية والمسائل الروحية الأخرى ، ويطيعونهم على أنهم رؤساء لهم ، أما فيما يتعلق بالأساقفة اللاتين الذين يقيمون في أبرشياتهم ، فإنهم يطيعونهم كلاماً ، لكن ليس فعلاً ، ويظهرون فقط أنهم يطيعونهم ويقولون ذلك خوفاً من سادتهم تبعاً للجسد ، لأن لديهم أساقفة أرثوذكس (إغريق) خاصين بهم ولا يخشون من الحرمان أو أي قرار يتخذ ضدهم من قبل اللاتين ولا بشكل من الأشكال ، هذا ويتجنب السواد الأعظم من قومنا جميع المعاملات معهم أو العلاقات والشؤون الأخرى : لأنهم يقولون بين أنفسهم : إن جميع اللاتين واقع عليهم الحرمان ، وبناء عليه لا يمكنهم اصدار قرار عقوبة بحق أي كان ، وفي

مجمع نيقية الذي كان واحداً من المجامع الأربعة الرئيسية ، المتقبلة قراراتها من قبل جميع الكنائس كلياً مثل تقبل الأناجيل الأربعة، كان عدد الحضور في ذلك المجمع ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً ، وقد تقرر هناك بين نقاط عديدة ، بأن روح القدس انبثق عن الآب ، وأعلنوا في الختام أن أي واحد يضيف أي شيء ، أو يحذف أي شيء من أعمال المجمع سوف يكون محروماً من الكنيسة ، ومع أنهم قالوا مقررين أن روح القدس صادر عن الأب ، لم يقولوا : إنه غير صادر عن الابن : ذلك أن أشياء كثيرة لم تقرر أو تعلن في البداية غير أنها تقررت وحددت من قبل الرجال المقدسين في أوقات تالية لنفي أية غلط ، وبناء عليه في الوقت الذي لدى الأرثوذكس (الاغريق) في عقيدتهم : « إنني أومن بروح القدس ، وبالرب ، وبواهب الحياة » ، يقول الاغريق بوضوح أكبر : «انبثق عن الأب وعن الابن »، ومثل هذا عندما يقول الأرثوذكس :« إن روح القدس من الأب ، لم يصنع ، ولم يخلق ولم يولد ، لكن انبثق » ، يضيف اللاتين : «روح القدس من الأب ومن الابن » ، ولا يضيفون أي شيء مخالف : ولهذا توجب فهم الجملة الأخيرة ، وأنها موجهة ضد الذين أضافوا أية أشياء مضادة ، وهكذا قال القديس بولص في رسالته الى الغلاطيين : « إن كان أحد يبشركم بغير ما تلقيتم فليكن ملعوناً (أناثيما) » (غلاطيه : ١/ ٩) ، والآن من المؤكد أن القديسين بشروا بأشياء كثيرة الى جانب ما بشر به بولص ، لكن مضاد لما بشر به بولص : ولهذا ينبغي أن نفهم هذا التحريم ، ومن المحزن من أجل ذلك أن كل من السريان والأرثوذكس أساءوا فهم ما تمت صياغته من قبل الآباء المقدسين في مجمع نيقية ، وأعلنوا أن روح القدس لم ينبثق عن الابن ، ومهما يكن الحال لقد نفخ المولى يسوع على حواريه وقال لهم : « اقبلوا الروح القدس » (يوحنا : ٢٠/ ٢٢) وبذلك يتبرهن بوضوح أنه نفخ روح القدس . وأن روح القدس قد انبثق

منه مع أنه انبثق من الأب ، وذلك بمثابة عهد محبة منهما ، وبناء عليه يقول هو نفسه في الانجيل :« إنني علمت أن قوة قد خرجت مني » (لوقا : ٨/ ٤٦)، لأنه بفضل قوة روح القدس التي خرجت منه شفى المرأة التي لمست طرف كسائه ، لأنه عندما قال للأب : « كل مالي هو لك ومالك هو لي » (يوحنا : ١٧/ ١٠) واضح أنه كما أن روح القدس من الأب ، إنه كذلك من الابن ، وهكذا قال القديس بولص : « أرسل الرب روح ابنه الى قلوبنا ، ولهذا ننادي أبا ، أيها الرب » (غلاطية : ٤/ ٦) ويقول القديس يوحنا أيضاً في رسالته العامة : « مسحته مسحتكم عن كل شيء » (يوحنا : ٢/ ٢٧) ويقول مرة أخرى : « المسحة التي نلتموها منه تثبت فيكم » ومن هذا نرى بوضوح أن روح القدس ــ أو المسحة ،التي هي الشيء نفسه هو روح الابن مثلما هو روح الأب ، أي أن الابن أرسله ، مثلما أرسله الأب ، وذلك من خلال شهادته حيث قال :« إن ذهبت أرسله لكم » (يوحنا :١٦/ ٧) ، وعلى هذا روح القدس مشترك بين الشخصين وانبثق منهما معاً ، ويقول دانيال : « ومن أمامه يجري ويخرج نهر من نار » (دانيال :٧/ ١٠) ولهذا السبب نجد مثلما اللاتين يعتقدون كلهم أن روح القدس انبثق من الابن ، كذلك العقلاء من الأرثوذكس لا ينكرون هذا ، مع أنهم لا يؤكدون ذلك رسمياً ، لأن عبارة « انبثق من الابن » غير موجودة في عقيدتهم ، والآن بما أن الأرثوذكس والسريان ــ كما سلف القول ــ يرون أن اللاتين جميعاً محرومين ، اعتادوا على غسل المذابح ، حيث كان اللاتين يقيمون القداسات ، وذلك قبل قيامهم بقداساتهم ، زد على هذا ، هم لا يقيمون أدنى اعتبار لقرابيننا المقدسة ، ولا يقومون عندما يمر كهنتنا عابرين وهم يحملون خبز القربان لزيارة المرضى ، وفي الوقت الذي نجد فيه الكنيسة الرومانية المقدسة وجميع الغربيين ، يقومون تقليداً منهم للرب فيصنعون خبز القربان خبزاً فطيراً ، لأنه بعدما

أكل حمل الرب مع خبز فطير ـ وذلك تقليداً لليهود ـ تولى تحويل الخبز الذي استخدم عند العشاء الى جسده : نرى أن الأغريق من الجهة الأخرى ، يرفضون هذا الطقس ، ويحتفلون بالقربان المقدس بخبز مخمر ، ومع هذا تعلمنا : « لنعيّد ليس بخميرة عتيقة ، ولا بخميرة الشر والخبث، بل بفطير الاخلاص والحق »، (كورنثه: ٥/ ٨) ، هذا ويخالف هؤلاء المنشقون تعاليم كنيسة روما المقدسة ، والسامية في أشياء أخرى كثيرة ، منتهكين بذلك النظام الرباني الذي عين روما لتكون المطرانية والمدينة العاصمة للعالم أجمع ، ولحكم المؤمنين بالأمور الروحية مثلما تحكم بالأمور الدنيوية : لأن كيفاس — الذي معناه الحرفي : الرأس ، والمعني بهذا بطرس — قد عينه الرب رأساً لجميع العالم، عندما قال الرب ، دون أن يعطي أي استثناء « سأعطيك مفاتيح ملكو ت السموات ،فكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطاً في السموات ، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولاً في السموات »(متى : ١٦ / ١٩) ، وقال أيضاً « ارع غنمي » (متى:٢١/ ١٧) ، وهو لم يقل اللاتين فقط أو الغربيين ، بل قال ببساطة : «غنمي» ، أي أن يكون هناك قطيع واحد وراعي واحد ، ثم إنه من الواضح أن كنيسة المسيح قد بنيت على هذه الصخرة ، أي بطرس الذي صلى من أجله الرب حتى لا ينقص إيمانه ، وكل الذين ابتعدوا عن كنيسة روما عبثاً يعملون ، لأنهم بنوا من دون أساس ، وانفصلوا عن الذي دعاه الرب باسم « كيفاس » ، وسوف يعدون تنينات رهيبة بلا رؤوس . ويتفق السريان مع الأرثوذكس بعدم السماح بزواج رابع ، والكهنة والشمامسة لديهم غير مسموح لهم أثناء ارتباطهم اللاهوتي بعقد الزواج ، ومع هذا مسموح لهم باستخدام الزوجات اللائي تزوجن منهن قبل رسامتهم، وهم لايعدون من كان بمرتبة مساعد شماس ضمن الهيئة المقدسة، ويقوم الكهنة برسم علامة الصليب بالزيت المقدس على جباه الأطفال بعد تعميدهم مباشرة،

الأمر غير المسموح بالقيام به لدى اللاتين إلا للأساقفة فقط ولرؤسائهم، لأن الأساقفة يقومون مقام الرسل في كنيسة الرب: لأنه بالاستلقاء على أيدي الرسل وهبت روح القدس للتقوية والراحة، ويعدون يوم السبت يوماً مقدساً جداً إلى حد عدم السماح بالصوم في يوم السبت إلا إذا كان السبت يوم عيد الفصح، ويقيمون القداسات العظيمة في يوم السبت مثل التي يقيمونها يوم الأحد، ويحتفلون بشكل رائع في ذلك اليوم، ويأكلون اللحوم تقليداً لليهود، لكن هذه المراعاة الطقوسية ملومة من قبل اللاتين خشية الظهور بمظهر المتبع لعادات اليهود.

الفصل الخامس والسبعون

فضلاً عن هذا، هناك في الأرض المقدسة، وفي أجزاء أخرى من الشرق أمماً بربرية أخرى، تختلف في كثير من النقاط عن الإغريق واللاتين، من هؤلاء قوم عرفوا باسم اليعاقبة، وقد نالوا اسمهم من معلم لهم اسمه يعقوب، وكان من تلاميذ بطريرك الاسكندرية، وكانوا قد تعرضوا منذ زمن بعيد إلى الحرمان الكنسي، وجرى طردهم من قبل الكنيسة الأرثوذكسية (الإغريقية) على يد ديوسكورس Dioscorus ، بطريرك الاسكندرية، وسكنوا بأجزاء كبيرة من آسيا وجميع الشرق: ويقطن بعضهم وسط المسلمين، ويمتلك بعضهم الآخر بلداناً خاصة بهم، دونما انسجام مع الكفار، ومن هذه البلدان: النوبة المتصلة بمصر، والجزء الأكبر من أثيوبيا، وكل البلاد امتداداً حتى الهند، وهي أكثر من أربعين مملكة، وقد أعلنوا أنها عائدة إليهم، وهم جميعاً مسيحيين وجرت هدايتهم من قبل الحواري القديس متى، وبعض الرسل الآخرين، لكن بعد أمد زرع العدو البيقية بينهم، وهم تاهوا لوقت طويل وسط ظلام محزن وخطيئة، ويقومون في أعظم الأجزاء بختن أولادهم من كلا الجنسين وفق طرائق المسلمين، دونما فهم أن نعمة التعميد قد جعلت الختان بلا

فعالية، مثل زهور سقطت وذبلت عندما تكون الثمار جاهزة للقدوم، وهكذا يقول القديس بولص برسالته إلى غلاطية: «إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئاً» وقال ثانية: «لكن أشهد أيضاً لكل انسان مختتن أنه ملتزم أن يعمل بكل الناموس. قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتبررون بالناموس، سقطتم من النعمة» (غلاطية: ٥/ ٢—٣)، وخطيئة أخرى من أخطائهم، ليست أقل مما تقدم هي أنهم يعترفون بذنوبهم ليس إلى الكهنة بل إلى الرب وحده بشكل سري، ويضعون البخور على النار إلى جانبهم، وكأن ذنوبهم سوف تصعد من هناك مع الدخان إلى الرب، وهم بهذا يخطئون بتعاسة، غير فاهمين للكتابات المقدسة، ويهلكون خلال عقيدة مزيفة، ويخفون جراحهم عن أطبائهم الروحانيين، ولفرض الكفارة عليهم، وللربط وللحل، وفقاً لما تسلموه من مفاتيح، وليقوموا بتأدية الصلوات خاصة للذين اعترفوا لهم، ولهذا قال الرب في الإنجيل للمجذومين: «إذهبوا واعرضوا أنفسكم على الكهنة» (لوقا: ١٣/ ١٤)، وقرأنا عن القديس يوحنا المعمدان بأن رجالاً «كانوا يتعمدون من قبله ويعترفون بذنوبهم» (متى: ٣/ ٦)، ثم إن الشعور بالخجل، والقلق والعار، والتواضع، أثناء الاعتراف هو الجزء الأكبر من الكفارة، ويكون الناس أكثر عرضة للذنب إذا اعتقدوا أنهم لايحتاجون إلى إظهار أفاعيلهم الشريرة للناس، لأنه قد كتب: «من يكتم خطاياه لاينجح، ومن يقرّ بها ويتركها يرحم» (أمثال: ٢٨/ ١٣)، والخطيئة الثالثة، والجهل القبيح مثل الظلام الذي يمكن الشعور بّه لهؤلاء اليعاقبة المتقدم ذكرهم، أن عدداً كبيراً منهم يقومون قبل تعميد أولادهم، بوسم أولادهم بحديدة محماة حتى الإحمرار، وبذلك يرسمون وسماً على جباههم، ويقوم آخرون بوسم أطفالهم بشارة الصليب على الوجنتين، أو على الصدغين، مفترضين بشكل خاطىء أنهم يقومون بالتكفير عن ذنوبهم بالنار الفعلية، لأنه كتب في إنجيل القديس متى بأن القديس يوحنا المعمدان قد قال عن المسيح: «هو سيعمدكم بالروح القدس وبالنار» (متى:

٣/ ١١) مع أنه من الواضح لجميع المؤمنين أن غفران الخطايا سوف يكون بنار روحية، أي بالروح القدس، وليس بنار مرئية، ونجد في كتب الأنبياء أن الرب غالباً ما وجه اللوم إلى بني اسرائيل، وهددهم بعنف لأنهم قاموا ومرروا أولادهم خلال النار كما فعل غير اليهود، لأن الرب يقول في سفر التثنية على لسان النبي موسى: «لاتتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم. لايوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته في النار، ولامن يعرف عرافة ولاعائف ولامتفائل ولاساحر» (التثنية: ١٨/ ٩—١٠) والمسيحيون جميعاً يعلمون أنه لاالرب ولارسله، أو أي من الآباء المقدسين، تركوا أية عادة من هذا النوع في الكنيسة، أو أمروا بعمل مثل هذا النوع من الوسم، وأنا رأيت بنفسي كل من اليعاقبة والسريان الذين يسكنون بين المسلمين، مع صلبان وسمت على أذرعتهم بحديدة محماة، وكأنهم يريدون أن يقولوا إنهم يفعلون ذلك لتمييز أنفسهم عن الكفار، وصدوراً عن الاحترام للصليب المقدس، قاموا بطبع صورة الصليب على أنفسهم، وتقصيت بالبحث بين السريان والأرثوذكس، فوجدت أنهم يبغضون اليعاقبة، وقد طردوهم من جماعتهم، وقالوا إن السبب الرئيس أنهم وقعوا في أعمال الارتداد شراً وإدانة، بإعلانهم أن المسيح كان له اقنوم واحد فقط، وبذلك له طبيعة واحدة فقط، والهراطقة من هذا النوع محرومين كنسيا ومدانين من قبل مجمع خلقدونية (سنة ٤٥١م)، وأصر بعضهم بشكل خاطىء على أن المسيح بعدما اتخذ طبيعتنا لم يعد موجوداً بطبيعتين، بل بقيت فيه الطبيعة اللاهوتية فقط، وجلب هذه الخطيئة إلى الكنيسة يوتيخس Eutyches ، وكان راعي دير في القسطنطينية، وأعلن آخرون أن الطبيعتين في المسيح صارتا واحدة، ومقترف هذه الخطيئة وفاعلها أسقفان من الاسكندرية اسمهما ثيودوسيوس Theodosius ، وغالانوس Galanus ، هذا ونحن نعرف بشكل مؤكد أن يسوع المسيح: جاع، وعطش، وشعر ببقية الحاجيات تبعاً لطبيعته البشرية، لابل حتى إنه عانى من الموت على الصليب، وقام بالوقت نفسه تبعاً

لطبيعته اللاهوتية، بإقامة الميت وعمل معجزات أخرى، ووفقاً لهذه الطبيعة قال: «قبل أن يكون ابراهيم أنا كائن» وقال ثانية: «أنا من البدء ما أكلمكم به أيضاً» (يوحنا: ٨/ ٢٥، ٥٩)، ومرة أخرى: «أنا وأبي واحد» (يوحنا: ١٠/ ٣٠)، وقال الشيء نفسه بالنسبة لطبيعته البشرية: «أبي أعظم مني» ومرة أخرى عندما كان عليه تناول كأس المضي من الحياة: «ليس كما أريد بل كما أنت تريد»، والآن عندما يرون هناك طبيعة واحدة فقط في المسيح، قالوا بالنفي، وأنا لاأعرف هل هم قد تأثروا بالخوف أو بسبب آخر، وعندما سألتهم: لم يستخدمون اصبعاً واحداً ليصلبوا أنفسهم بها، أجابوا بأنهم يرمزون بالاصبع الواحد لكائن إلهي واحد هو الثالوث في ثلاثة أشخاص، وأنهم بذلك يحصنون أنفسهم بشارة الصليب باسم الثالوث المتحد، لكن الأرثوذكس والسريان يقولون في نقد لهم، بأنهم يرسمون على أنفسهم باصبع واحد بسبب الطبيعة الواحدة التي يمتلكها المسيح حسب اعتقادهم. ويستخدمون الأحرف الكلدانية، وبعضهم الآخر العربية التي ندعوها الاسلامية، ويستخدم سواد الناس منهم لهجات مختلفة في كلامهم العام، وذلك تبعاً لاختلاف أممهم وبلدانهم، ولايفهمون اللغة التي يستخدمها رجال الدين لديهم في الكتابات المقدسة، لأنه صحيح أن هؤلاء يستخدمون الأبجدية العربية، إن الذي يكتب ليس اللغة العامية العربية، بل لغة خاصة مفهومة فقط من قبل المتعلمين.

الفصل السادس والسبعون

هناك أمم أخرى لاتقطن فقط في الأرض المقدسة وبين المسلمين، بل يقطنون مستقلين بأنفسهم في الجزء الأكبر من الهند، وهم قوم يعرفون باسم النساطرة، صدوراً عن مهرطق رئيس اسمه نسطور، الذي أصاب معظم الشرق بالسموم القاتلة لعقيدته، وخاصة الذين يسكنون في بلاد

ذاك الأمير القوي جداً والهمجي الذي يعرف باسم «برسترجون» وجميع هؤلاء مع ملكهم نساطرة، وقد قيل إنهم مع اليعاقبة أكثر عدداً من اللاتين أو الأرثوذكس، وعن أولئك الذين سكنوا منفردين، والذين أعدادهم لاتحصى، سوف لن نتحدث، لكن هناك بين المسلمين كثير من المسيحيين وهم منسجمين مع المسلمين، ويخضعون لقانونهم مثل خضوع المسلمين أنفسهم، وصحيح أن هؤلاء الناس لم يأخذوا بالشريعة المثيرة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) إنهم مع ذلك فسدوا بشكل بائس بالهرطقات، ويذهب نسطور ابن الجحيم، الذي كان (رئيس) أساقفة القسطنطينية إلى القول مع زبانيته: إن مريم العذراء المباركة لم تكن أماً لرب، لكنهم يقرون أنها كانت أم المسيح الانسان، ويعلنون أنه لم يكن في المسيح شخص إلهي وشخص بشري، وأنه تبعاً لطبيعته يوجد في المسيح شخصين متميزين، وهم لايعتقدون أن كلمة الرب والجسد كانا مسيحاً واحداً، بل يؤمنون بوجود شخصين منفصلين متميزين: أحدهما ابن الرب، والآخر ابن الانسان؛ وكانت هذه الهرطقة البغيضة قد أدينت من قبل مجمع افسوس (٢٢ حزيران ٤٣١ م) الذي شهده ثلاثمائة من آباء الكنيسة، لأنه كما هو معقول النفس والجسد في انسان واحد، كذلك معقول وجود الرب والانسان في مسيح واحد، ومع أن طبيعة الروح تختلف عن طبيعة الجسد، ليس هناك انسان واحد تبعاً للروح وآخر تبعاً للجسد، ثم مع أن طبيعة الحديد شيء، وطبيعة النار شيء آخر، نجد أن الحديدة المحماة حتى اللون الأحمر شيء واحد، وتبعاً للهرطقة المتقدمة الذكر، ينبغي أن لايستخدم الانسان كلمات: «المسيح هو رب وانسان؛ وتوفي ابن الرب ودفن»، لأنه احتراماً له لكونه ابن الرب، لايمكنه أن يعاني ولا أن يموت، ومع هذا يقول إشعيا:«لأنه يولد لنا ولد....ويدعى اسمه....إلهاً قديراً»(إشعيا:٩ / ٦)،وكان هذا الرب طفلاً صغيراً، وهذا معارض لعقيدتهم الهرطقية،ويتحدث إرميا بالاسلوب نفسه عن ابن الرب قائلاً:«وتراءى فيما بعد على الأرض وتحادث مع الناس»(باروخ:٣ /

٣٧)،وذلك مع أنه كرب هو غير مرئي ،وقال القديس بولص:«أرسل الرب ابنه مولوداً من امرأة،مولوداً تحت الناموس»(غلاطية:٤/ ٤).وواضح من هذا أن ابن الرب ابن العذراء،وهكذا كانت مريم أم الرب،:« وسيقال هذا الانسان ولد فيها، وهي العلي يثبتها»(المزامير:٨٧/ ٥)،وهكذا فإن الانسان الذي ولد من العذراء مريم قد تولى أيضا خلقها،وأن ذلك الانسان كان هو الرب،وبالطريقة نفسها ينبغي أن نقّر أن ذلك الطفل قد خلق السموات، ومن أبد الآبدين كان من عنصر الآب نفسه ومساوياً له،لأن« الكلمة صارت جسداً وحل فينا»(يوحنا:١/ ١٤)الآن ونحن نرى أنه قد قال هو نفسه:« أنا ذلك الذي كلمتكم عنه منذ الابتداء»(يوحنا:٨/ ٢٥-الترجمة اللاتينية لجيروم)،مامن انسان عاقل يمكنه أن يشكك أن ذلك الشخص نفسه هو الابتداء والخالق لجميع الأشياء،وأنه تحدث مع البشر،وأنه بناء عليه واضح بدون أدنى شك أن الشخصين:الإلهي والبشري هما واحد ونفسه، الأمر الذي ينكره النساطرة التعساء.وهم يستخدمون الأبجدية الأكادية في الكتابات المقدسة،والخبز المخمر في القداس مثل الاغريق.

الفصل السابع والسبعون

هناك شعب آخر يسكن فوق جبال لبنان،في مقاطعة فينيقيا،ليس بعيداً عن مدينة جبيل ،وأعداد هذا الشعب كبيرة،ويستخدمون القسي والنشاب، ويتسمون بالسرعة والمهارة في القتال،ويعرفون باسم الموارنة نسبة الى معلمهم،وهو انسان اسمه مارون، وكان مهرطقاً،بشر بأن المسيح كانت له ارادة واحدة ونشاط واحد، وكان مقترف هذه الخطيئة أسقفاً لأنطاكية واسمه مكاريوس، وقد أدين مع أتباعه على أنه رأس للهرطقة،وطرد من كنيسة الشعب المؤمن بالمسيح،وقيد بقيد الحرمان واللعنة من قبل المجمع السادس للقسطنطينية،الذي اجتمع فيه مائة

وخمسين من آباء الكنيسة،لأنه كما يوجد في الانسان العادي إرادة عقل واحد وإرادة أخرى للشهوة، كذلك كان في المسيح إرادة بشرية جعلته يرغب بالأكل وبالشرب،الى أن عبرت الكأس عنه،ورغبة لاهوتيه أخرى، وهي التي كانت واحدة مع رغبة الآب، وقد أظهر بشكل واضح هاتين الرغبتين عندما قال:«ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت»(متى:٢٦/ ٣٩)،ومن الذي لايعرف أن الأكل والشرب والحاجيات الأخرى التي خضع لها المسيح كإنسان ليست سوى عمليات بشرية، وليس لها أدنى علاقة مع أبدية الرب ؟ لكن لأن يقيم الميت ، ولأن يستأنف الحياة بعد الموت لا علاقة لهما بالبشرية بل بالقدرة الإلهية فقط ، وبهذا إنه لمن الواضح أن عمل الانسان يختلف عن عمل الرب ، ووفق هذه الطريقة علمنا القديس بولص بوضوح أن ارادة الانسان مزدوجة ، وذلك عندما قال في رسالته الى الرومان : « إني لا أعرف ما أنا عامله ، لأن ما اريده من الخير لا أعلمه بل ما أكرهه من الشر إياه أعمل » (رومية : ٧/ ١٥ ,١٩) وانظر كم هو الصراع عظيم هنا بين إرادة العقل وإرادة الشهوة ، وقال مرة ثانية : « الإرادة حاضرة عندي ، وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد » (رومية ٧/ ٨) « وأما الروح فنشيط » (متى : ٢٦/ ٤١) ولكن الجسد ضعيف ، لأنه يعمل وفقاً للارادة المنطقية ، وتبعاً لهذا أخذ أحدهم بطرس وقاده الى حيث لم يرغب ، ومع هذا فإنه بوساطة عمل إرادته العقلانية عاد الى روما طواعية ، واختار أن يصلب ، وبين الرسول بولص هاتين الارادتين على أنهما ناموسين متنازعين معاً داخل الانسان فقال :« ولكني أرى ناموساً آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني الى ناموس الخطية الكائن في أعضائي » . (رومية : ٧/ ٢٣) ، والآن إن مارون المتقدم الذكر ، الذي كان أعمى بقوة باهرة أرسلها الشيطان،كان له أتباع كثرة في خطيئته، وهم الذين عرفوا باسم الموارنة، وظلوا لقرابة الخمسمائة سنة

منفصلين عن الكنيسة الرومانية المقدسة، وعن الاتصال مع المؤمنين يقيمون القداسات بأنفسهم منعزلين:ومع هذا عادوا فيما بعد الى قلوبهم،وقاموا بحضور الأب المبجل أما لرك،بطريرك أنطاكية بالإعلان عن إيمانهم بالعقيدة الكاثوليكية، وأقلعوا عن الخطيئة المتقدمة الذكر، واتبعوا عادات كنيسة روما، ومعروف أن الأساقفة الشرقيين —باستثناء اللاتين فقط — لايستخدمون الخواتم،ولاالقلانس الأسقفية ،ولايحملون الصولجانات الأسقفية بأيديهم ولايستخدمون النواقيس بل اعتادوا على دعاء الناس الى الكنيسة، بالضرب على لوح من الخشب بعصا أو بمطرقة، وقام الموارنة المتقدم ذكرهم إظهاراً منهم للطاعة لروما،فاتبعوا عادات وطقوس اللاتين،وهكذا كان بطركهم حاضراً في المجمع الكنسي الذي انعقد في اللاتيران(١٢١٦م)وسط احتفال مهيب أيام ولاية البابا المبجل انوسنت الثالث،وهم يستخدمون الأبجدية الكلدانية،ولغة المسلمين الشائعة.

الفصل الثامن والسبعون

وللشعب الأرمني الذي يسكن لوحده في مقاطعة(دولة) أرمينيا(الصغرى) بين المسيحيين والمسلمين،تميز واختلاف عن جميع أمم المسيحيين، لامتلاكه لطقوس غريبة ولعادات شاذة خاصة به،وللأرمن المتقدمي الذكر رئيس خاص بهم يدعونه الجاثليق،وهم جميعاً من الأدنى الى أكثرهم علواً بينهم يطيعونه مع أقصى درجات التشريف، ويبجلونه وكأنه بابا آخر، وبينهم وبين الاغريق نزاعات لايمكن فضها، وخلافات لايمكن تسويتها،وتكره كل فئة وتمقت ممارسات وطقوس الطائفة الأخرى،ولهم لغتهم الخاصة، مع أبجدية، ويقرأون الكتابات المقدسة بلغة عامية،وبهذا بات من الممكن فهم كهنتهم ورجال الاكليروس منهم في كنائسهم من قبل العامة،وذلك حسبما تحدثناه عن الحالة مع

الاغريق،وهم لايحتفلون بعيد ميلاد الرب وفقاً للجسد،بل يصومون في يوم ميلاد الرب،وعندما ينتهي الصيام يحتفلون بعيد ميلاد الرب(٦— كانون ثاني) مع عيد القديس يوحنا المعمدان ويعلنون أنه في ذلك اليوم الذي يقيمون فيه العيد هو يوم ميلاد الرب تبعاً للروح، ومع هذا لايمكن القول بأن الرب قد تجدد روحياً أو ولد مرة ثانية،لأنه وهو الذي لم يقترف ذنباً لم يتطهر بماء التعميد« لم يفعل خطية ولاوجد في فمه مكر»(بطرس:١/ ٢/ ٢٢). وهم يقومون بالصيام قبل قيامة الرب،ويراعونه بشكل صارم حتى أنهم لايمتنعون عن اللحم والجبنة، والبيض،والحليب فقط،بل إنهم لايأكلون السمك،ويستخدمون الزيت،ولايشربون الخمرة:ومع هذا إنه لمن الصعب تسميته صوماً،لأنهم يأكلون الفواكه والخضار بقدر مايرغبون في اليوم،ولكي يختلفوا عن الطائفتين المنافستين:الاغريق(الارثوذكس)والسريان، يتولون أكل اللحوم في بعض أيام السبت،وهم لا يمزجون الماء بالخمرة في يوم القربان المقدس لدم المسيح، وهم يظهرون بهذا الطقس الهرطقي وقد اقترفوا إثماً عظيماً،لأن ربنا يسوع عندما وضع العشاء على المائدة مزج الخمرة ليس وفقاً لعادات جميع الشرقيين،الذين لايشربون الخمرة بدون مزج، وعمل قربانه من خمرة ممزوجة بالماء،وفي الحقيقة مامن أحد في هذه المناطق يمكنه أن يشرب الخمرة صرفة من دون ماءإلا ويقع مريضاً، وبناء عليه يقول القديس سيبريان cyprian حول مزج الماء بالخمرة:« إذا لم يراع واحد من أسلافي، سواء عن طريق الجهل أو السذاجة القانون الذي علمنا إياه الرب عن طريق ممارساته وسلطته، فإن سذاجته يمكن أن تنال الغفران من الرب،أما نحن فلا يمكن أن يغفر لنا،لأننا قد حذرنا، وتلقينا التعليمات من الرب في أن نقدم كأس الرب ممزوجة بالماء،مثلما قدم الرب الشيء نفسه»،ومن الواضح أن الرب قدم في العشاء الأخير كأساً من الخمر ممزوجاً بالماء،وبناء عليه فإن الأرمن المتقدمي الذكر لايقلدون الرب في عيد القربان المقدس في المذبح،ولم يدركوا أسرار

الطقس،لأن الماء الذي هو شيء لايعرف الثبات،بل دوما ينساب،هو يرمز الى الشعب الفاني،الذي لايعرف الثبات،ولهذا يمزج الماء بالخمرة ليبين أن الناس اتحدوا بالمسيح،مثل الانضمام الى دم مخلصنا،لأنه إذا ما قدم أحدهم الخمر صرفاً،كأنه بدأ بدم المسيح بدوننا، وإذا ما قدم الماء لوحده سيكون ذلك الناس لوحدهم من دون المسيح،ولن يحمل معنى المزج المتقدم الذكر،ذلك أن القربان ينبغي أن يكون علامة على شيء مقدس،ولايجوز— بناء عليه— أن يكون الرب المقدم لامن الماء لوحده ولامن الخمرة لوحدها،لأننا نقرأ أنه في آلامه صدر عنه من جانبه كلاهما معا.

ومهما يكن من أمر لقد وعد الأرمن الآن بإطاعة البابا والكنيسة المقدسة في روما،وذلك عندما تلقى ملكهم(ليون الكبير ١١٨٥—١٢١٩) بلاده من الامبراطور هنري،امبراطور، الامبراطورية الرومانية المقدسة،وجرى تتويجه(في طرسوس سنة ١١٩٨) من قبل رئيس أساقفة مينزmainz،ومع ذلك لم يغيروا عاداتهم القديمة الراسخة.

الفصل التاسع والسبعون

ويوجد في الشرق أيضا شعب مسيحي آخر،مولع رجاله بالحرب كثيراً، وهم شجعان في القتال،ذلك أنهم أقوياء في الجسد، وأشداء في أعداد مقاتليهم التي لاتحصى، وهم مرعبون يخافهم المسلمون كثيراً،وغالباً ماأحدثوا بغاراتهم أضراراً عظيمة ألحقوها بالفرس،وباميديين، وبالآشوريين، الذين سكنوا على حدودهم،ذلك أنهم مطوقون تماماً من قبل الأمم الكافرة، ويعرف هؤلاء القوم باسم الجورجيين(الكرج)لأنهم يبجلون بشكل خاص ويعبدون القديس جورج،الذي هو شفيعهم وحامل رايتهم في قتالهم مع الكفار،ويمجدونه

فوق جميع القديسين الآخرين، ويقرأون الكتابات المقدسة بالإغريقية،ويقدمون القرابين وفق الطريقة الإغريقية، ويحلق رجال الاكليروس لديهم رؤوسهم بشكل مستدير،أما السواد الأعظم منهم فبشكل مربع،وكلما جاءوا للحج الى ضريح الرب،يسيرون في المدينة المقدسة بأعلام مرفوعة دون أن يدفعوا الجزية لأي انسان،لأن المسلمين لايتجرأون أبداً على التحرش بهم، خشية أنهم عندما يعودون الى بلادهم يقومون بالانتقام لأنفسهم من مسلمين آخرين من جيرانهم، وتشبه نساؤهم النبيلات الأمازونيات ويحملن السلاح في القتال مثل الفرسان، وكان الجورجيون ساخطون جداً وهددوا المعظم عيسى، أمير دمشق، لأنه استأنف تدمير أسوار القدس ضد رغبتهم، وكان هذا عندما كان اللاتين يحاصرون دمياط، وهم يطلقون شعورهم وشعور لحاهم حتى تصل إلى طول ذراع تقريباً، ويرتدون قبعات على رؤوسهم.

الفصل الثمانون

يدعى المسيحيون الذي يسكنون في أفريقيا واسبانيا بين مسلمي العرب باسم المستعربين، وهم يستخدمون الأبجدية اللاتينية، ويقرأون الكتابات المقدسة باللغة اللاتينية، وهم مثل اللاتين الآخرين يطيعون بتواضع وعن إيمان الكنيسة الرومانية المقدسة، دون الانحراف في أي سبيل والابتعاد عن تعاليمها الدينية أو الطقوسية المتعلقة بالقربان المقدس، وهم يحتفلون بالقربان المقدس بخبز فطير، مثلما يفعل بقية اللاتين، ويقسم بعضهم — على كل حال— قداس القربان إلى سبعة أجزاء، وبعضهم إلى ثمانية، في حين تقسم الكنيسة الرومانية مع رعاياها الآخرين القربان المقدس إلى ثلاثة أجزاء فقط، وبما أن هذا التقسيم لاعلاقة له بجوهر القداس فإنه لايغيره أو يعيق فضيلته.